كتاب في جريدة
أصدرته منظمة الأونيسكو عام 1996
زوروا موقعنا على الإنترنت: www.kitabfijarida.com
عدد 115 – الأربعاء 5 آذار 2008

ريح الجنوب

«رواية»

عبدالحميد بن هدوقة
رسوم: تغريد دارغوث



الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

اقرؤا «كتاب في جريدة» الأربعاء الأول من كل شهر على
www.kitabfijarida.com

برعاية كل من مؤسسة MBI Al Jaber Foundation ومنظمة الأونيسكو Unesco وبمشاركة كبريات الصحف اليومية العربية ونخبةٍ رائدةٍ من الأدباء والمفكرين، يتواصل أكبر مشروع ثقافي مشترك «كتاب في جريدة» من أجل نشر المعرفة وتعميم القراءة وإعادة وشائج الإتصال بين عموم الناس ونخبة الفكر والإبداع في المجتمع العربي ليقدّم هديّته كلّ شهر بأكثر من مليوني نسخةٍ لكتابٍ من روائع الأدب والفكر قديمه وحديثه.



سعادة السيد كويشيرو ماتسورا Koïchiro Matsuura المدير العام للأونيسكو
ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber








الصفحة الرئيسية للموقع الالكتروني لـ«كتاب في جريدة» .



ريح الجنوب*

«رواية»

عبدالحميد بن هدوقة

ولد عبد الحميد بن هدوقة في قرية المنصورة إحدى قرى ولاية «سطيف» في الشرق الجزائري سنة 1925 وتعلم اللغة العربية على يد والده، فيما تعلم الفرنسية خلال مرحلة التعليم الابتدائي في قريته، وسيكون لهذا التزامن في تلقي اللغتين أثره العميق في تشكيل الانفتاح الثقافي في تجربة ابن هدوقة في مراحلها اللاحقة.

واصل دراسته المتوسطة في ولاية قسنطينة، ثم سافر إلى مرسيليا في العام 1949 لإكمال دراسته العالية في مجال الإخراج الإذاعي، وبعد عودته عمل مدرساً في مدينة قسنطينة لمدة عام واحد، غادر بعدها إلى تونس تحت ضغط سلطة الاحتلال الفرنسي بسبب نشاطه المناوئ حيث مكث فيها أربع سنوات، نال خلالها الشهادة في الأدب من جامعة الزيتونة، وشهادة التمثيل العربي من معهد فنون الدراما في تونس.

بدأ الكتابة في الخمسينيات، وكان عمله الأول ديواناً شعرياً بعنوان (حامل الأزهار) نشر في العام 1952.

نشط في العمل السياسي، والفعاليات النقابية والتجمعات الممثلة لحركات التحرر. وخلال إقامته في تونس أودع السجن بسبب نشاطه الصحفي، ثم فرّ من السجن مع مجموعة من رفاقه. وبعد اندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954 عاد إلى الجزائر.

كان عبد الحميد بن هدوقة على اتصال دائم بالثورة الجزائرية وقادتها الميدانيين، وكتب عن تلك التجربة في الصحف والمجلات التي كانت تصدر آنذاك في تونس، كما عمل فيما بعد في الإذاعة التونسية، وعمل كذلك في فرنسا مخرجاً في الإذاعة الفرنسية.

بعد استقلال الجزائر عمل مديراً للبرامج في هيئة الإذاعة والتلفزيون الجزائرية ثم مدير الإذاعتين العربية والقبائلية.

صدر له في الشعر ديوانان هما «حامل الأزهار» 1952، و«الأرواح الشاغرة» 1967 .

كما صدرت له مجموعات قصصية عدة بينها «ظلال جزائرية» 1960، «الأشعة السبعة» 1962 «الكاتب وقصص أخرى» 1974 .

أما في الرواية فقد صدر له «ريح الجنوب» 1971، «نهاية الأمس» 1975، «بانَ الصبح» 1980،«الجارية والدراويش» 1983، «غد يوم جديد» .

رغم أن عبد الحميد بن هدوقة تعلم الفرنسية منذ دراسته الابتدائية، إلا إنه كتب جميع أعماله بالعربية دون أن يعني ذلك موقفاً إزاء الكتابة باللغة الأخرى خاصة وأنه ترجم منها أعمالاً أدبية عدة، بل إن له رأياً مبكراً ولافتاً في هذا المجال، يرى فيه أن الأدب الجزائري ينبغي أن يجعل من الكتابة في كلتا اللغتين، أفقاً للتحاور والتفاعل وليس ساحة للتناحر والإلغاء. وكذلك كان له موقفٌ مبكرٌ ممّا تعرضت له الجزائر من أعمال عنف خلال النصف الأول من التسعينات.

توفي عبد الحميد بن هدوقة عام 1996.

تعد روايته الأبرز «ريح الجنوب»، التي ننشر منها هنا ستة فصول، علامة فارقة في تاريخ الأدب الجزائري، وإحدى الركائز الأساسية في تاريخ الرواية العربية في هذا البلد، ولعل الرأي الذي يقول أنها تمثل الريادة الحقيقية والتأسيس الفعلي لفن الرواية المكتوب بالعربية في الجزائر لا يعدو الحقيقة، وذلك لما تنطوي عليه بنية هذه الرواية من تمكن بنائي لافت، ومستوى سردي محكم ومقاربة عميقة لنماذج الشخصيات، ومعالجة فنية خاصة.

وعلى الصعيد الرواية العربية يمكن توصيف هذه الرواية بأنها أصبحت، بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود على صدورها بطبعتها الأولى، واحدة من كلاسيكيات الرواية العربية ومن بين أبرزها خلال القرن العشرين.

وعلى الصعيد العالمي نالت هذه الرواية اهتماماً واسعاً فترجمت إلى حوالي عشر لغات عالمية بينها الفرنسية والألمانية والإسبانية والروسية. فيما حظيت باهتمام مضاعف بعد أن تحولت في أواسط السبعينات إلى فيلم سينمائي بالاسم نفسه.

تدور أحداث الرواية في أرياف أحدى قرى الشرق الجزائري، في الفترة التي أعقبت جلاء المستعمر ونيل الاستقلال حيث تتداخل في فصولها المعالجات لبيئة اجتماعية على مشارف التحولات، وإعادة فحص نظام الطبقات فيها من خلال العلاقات بين نماذجها المختلفة.

وبينما تتسع الدراما الاجتماعية بين سطوة العاصمة وألفة القرية، فإن الدراما الداخلية لهذا العمل الروائي تتخذ منحى متعدد المستويات في علاقات الفلاح بالراعي، الرجل بالمرأة، الأجيال الجديدة بأسلافها، الإقطاعي بالموظف، الطقوس والعادات المتوارثة، والنظم الدينية. وكذلك تنعكس على تفاعلات نشوء الوعي الطبقي، وتوظيفه في تلك العلاقات المتلبسة، إضافة إلى لمعان خفيف لظلال مهمة تلفّ ملامح لقصة حب، تتفاعل مضمرة وتنمو في الخفاء لتنتهي بفعل دموي يقود الشخصيات إلى أكثر من اتجاه وأكثر من مصير. حيث تأتي «ريح الجنوب» لتعصف بالحكايات القديمة،كما تفتك بالمحاصيل الزراعية الموسمية، فيعود الجميع إلى موسم آخر وحكايات جديدة.

إنها الواقعية الرائدة في الأدب الجزائري، وهي واقعية لا تخلو من مسحة سحرية محلية تشيدها نماذج مهمة مثل شخصية صانعة الفخار العجوز «رحمة» وهي تهذي بساعات مرضها لتقدم الجانب الآخر للغة ودلالاتها السحرية وخرافاتها الشاعرية مشيدة عالماً خاصاً منبتاً عن اللحظة نحو سموات أخرى. أو شخصية أم الراعي رابح، البكماء التي تصغي لمونولوجها الداخلي لتفجره عنفاً دامياً في دفاعها عن ابنها وهي ترى حياته في لحظة مفصلية تتعرض لخطر القتل. أو تنحو إلى احتجاج يعبر عنه بحس الاختلاف عن المحيط في وعي «نفيسة» المتعلمة المتذمرة من عالم يتكرس انفصالها عنه كل يوم ليتوج بالرفض والهجرة.

إنها رواية المرأة بمختلف نماذجها المقهورة والمذعورة والمحتجة. وهي رواية مكتوبة بعربية فخمة وبجزالة متماسكة، ومتمسكة ببلاغة تراثية وعبارات فصيحة حدّ الصرامة.. حتى أن صرامة تعبيراتها وجزالة ألفاظها وفصاحة عباراتها تنسحب بالقدر نفسه على الراعي والمثقف لتضعهما في مستوى واحد!

محمد مظلوم

* اعتمدنا في نشر فصول من هذه الرواية، النسخة الصادرة عن المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر بطبعتها الخامسة 1989.

تغريد دارغوث

ولدت تغريد عام 1979, صيدا، لبنان.
تخرّجت من الجامعة اللبنانية للفنون الجميلة دبلوم في الرسم والنحت عام 2000, بالإضافة إلى دبلوم في فن التعليم عام ٢٠٠٠، من معهد المعلمين في بيروت.
كما تابعت دراستها العليا في «Ecole Nationale Supérieure des Arts Décoratifs» في باريس.
شاركت في عدة معارض جماعية في لبنان، أرجنتين، باريس وعمّان. بالإضافة إلى ثلاث معارض فردية في لبنان.
للإتصال غاليري أجيال: Agial, Saleh Barakat, agial@cyberia.net.lb

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

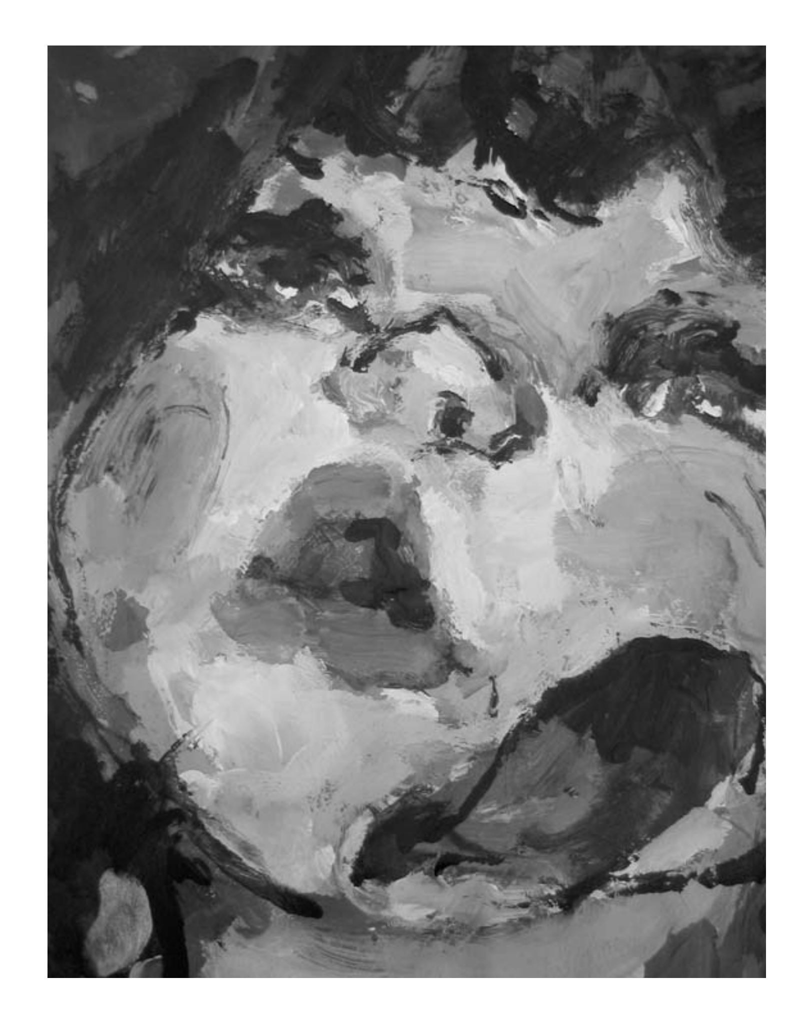
المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة



تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

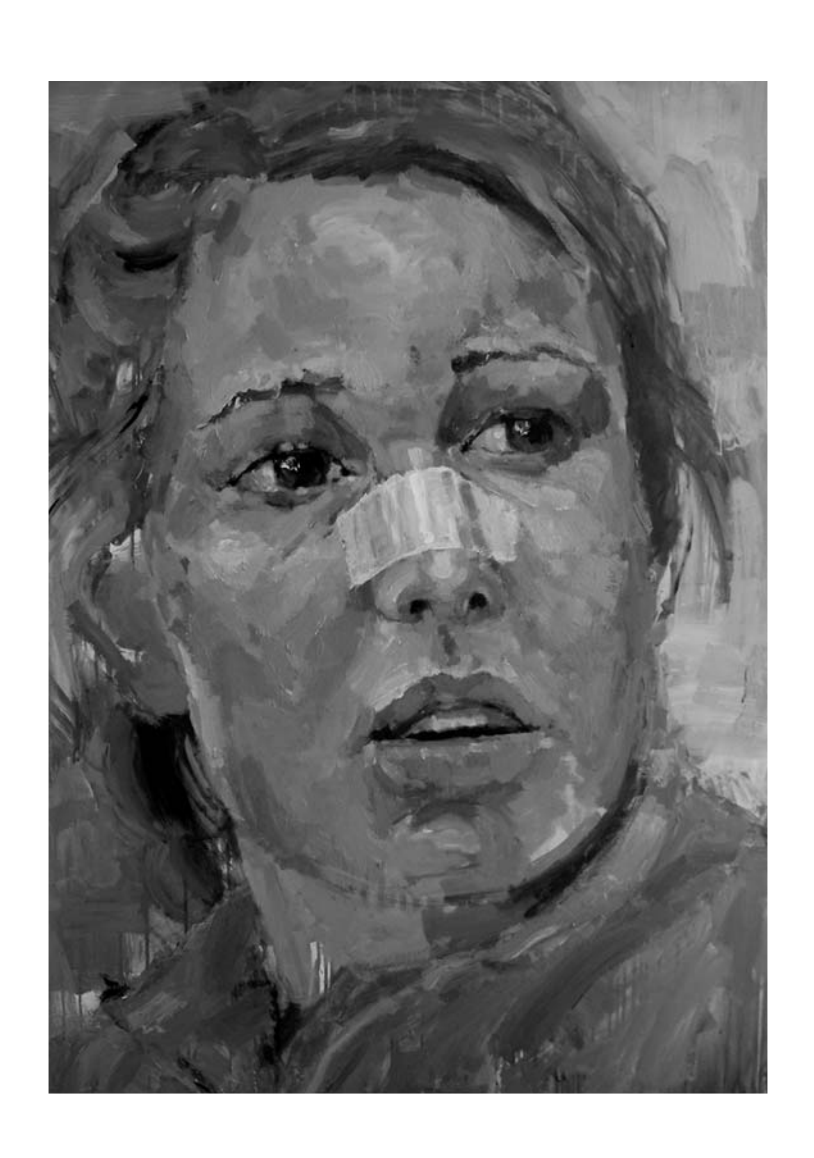
الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
بول ناسيميان

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه ـ محامون»

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

كتاب في جريدة
عدد رقم 115
(5 آذار 2008)
الطابق السادس، سنتر دلفن،
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com



صورة الغلاف الخارجي: للفنانة تغريد دارغوث.

الصحف الشريكة
الأحداث – الخرطوم
الأيام – رام الله
الأيام – المنامة
تشرين – دمشق
الثورة – صنعاء
الخليج – الإمارات
الدستور – عمّان
الرأي – عمّان
الراية – الدوحة
الرياض – الرياض
الشعب – الجزائر
الشعب – نواكشوط
الصباح – بغداد
العرب – تونس،طرابلس الغرب ولندن
مجلة العربي – الكويت
القاهرة – القاهرة
القدس العربي – لندن
النهار– بيروت
الوطن – مسقط

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الألفبائي حسب الاسم الأول

ريح الجنوب

عبدالحميد بن هدوقة

الفصل الأول

كانت ريح الجنوب قد سكتت منذ أن طلع أوَّل شعاع للفجر مصافحاً قمم الجبال ومحيّياً من بعيد ما واجهه من تراب القرية التي قضت ليلتها تلك تحت الغبار والدويّ العنيف. وكان اليوم جمعة تتوقف فيه غالباً كل الأعمال بسبب سفر السكان إلى السوق التي موعدها في ذلك اليوم.

وكان عابد بن القاضي وابنه الصغير عبد القادر قرب الدار يساعدان رابحاً راعي الغنم على الخروج بها من الممر الضيق الذي يشق بعض بساتين القرية... وتنهد تنهداً حزيناً وهو يرى الغنم أمامه، ذلك أن الإشاعات التي كانت بدأت تروج منذ صدور القرارات المتعلقة بالتسيير الذاتي، حول الإصلاح الزراعي قضَّتْ مضجعه وصارت منشأ همومه ومحلَّ تفكيره الدائم.

وبعد أن ابتعدت الغنم رجعا إلى الدار. سأله ابنه قائلاً:

– «هل أذهب معك اليوم إلى السوق؟»

– «اذا أحببت...»

– «أنأخذ الحصان أم البغلة؟»

– «البغلة، لأننا سنشتري بعض الأدوات الفلاحية».

وخطرت بباله فكرة قديمة وهو يرى نافذة حجرة نفيسة ما تزال مغلقة فكرة بعثت في نفسه سروراً غامضاً. وكان مضمونها يتلخص في تزويج ابنته نفيسة بمالك شيخ البلدية. طبعاً الفكرة كانت جميلة ومسرة في نفس الوقت ولكن تحقيقها ليس هيناً. فقد لا يرغب شيخ البلدية في هذا الزواج...

وسافر الأب وابنه إلى السوق. أما نفيسة فكانت قد استيقظت منذ فترة من الوقت ولكنها لم تفارق فراشها، فقد أصبحت تشعر بغربة وحنين إلى الجزائر العاصمة التي فارقتها منذ أسبوعين كاملين. وقالت في نفسها:

– «حتى النوم لا أستطيع أن أنام! ليتني لو نمت حتى تنقضي هذه الشهور... كل شيء هنا يحرّم الخروج، حتى الشمس!... لكن أي فائدة في الخروج إلى الخراب؟ أظن أن القنابل الذرية التي يتحدثون عنها لا تستطيع أن تجعل مكاناً أشد خراباً من هذه القرية... الصمت، الصمت، الصمت! أكاد أجن من هذا الصمت قد تكون يقظة الموتى في أجداثهم تشبه يقظتي هذه: جدران أربعة وسقف من خشب، وصمت! أكاد أختنق من هذا السكون وهذا الصمت! أمّي فرحت برجوعي... مسكينة أمي، لو عرفت الجزائر لبكت لرجوعي».

الحجرة ضيقة طولها ثلاثة أمتار وعرضها كذلك، بها كوة خارجية مطلة على جزء من البستان، ارتفاعها سبعون سنتمتراً وعرضها خمسون سنتمتراً. وفي هذه المساحة السرير القديم الذي تنام عليه نفيسة، وخزانة أشدّ قدماً منه حيث حقيبتها وأثوابها وكتبها وقرب الكوة منضدة ومقعد خشبي.

ما يدفع نفيسة للنوم بهذه الحجرة كلما رجعت من الجزائر شيئان: أولاً الكوة الخارجية التي تفسح للنظر مشهداً خلفياً جميلاً، نهايته القصوى جبال جرجراء، ثانياً هي لا تستطيع النوم مع أمها وأخيها في الفراش العائلي، كما هي العادة لدى سكان القرية. فهي تفضل هذه الحجرة الضيقة على الذوبان النهائي في الأسرة. وهناك سبب ثالث يدفعها للانعزال في هذه الحجرة وهو مراجعة دروسها السنوية ومطالعة بعض الكتب والقصص التي جلبتها معها من الجزائر.

بقيت مضطجعة في سريرها الصغير، وعيناها تجولان في سقف الحجرة تعدان ألواحه:

– «7، 14، 21 لوحة... كم عددت هاته الألواح! عددتها وأعدها بالرغم مني ما دمت أحيا هنا...».

لم تكن تفكر في شيء مخصوص، ولا في حياة أخرى واضحة الآفاق إنما هي تفكر في كل شيء وفي لا شيء. وهناك أحياناً تجد نفسها بصورة عفوية تفكر، فيما يفرضه نوعها البشري كامرأة، تفكيراً مضطرباً عابثاً... وقالت تحدث نفسها وهي تنظر إلى السقف:

– «إحدى وعشرون لوحة بهذا السقف! لو كان به ثماني عشرة لوحة فقط لبقيت ثغرة فيه، أو لو كانت الألواح أعرض قليلاً مما هي عليه لكفت الثماني عشرة لوحة... وأردفت قائلة بتصميم وجهر:

– «لا، لا، لا أستطيع أن أتزوج الآن... دروسي، حياتي هذه... يجب أن أنهي دراستي أولاً، وأغير حياتي بعد ذلك... إنني مجنونة أفكر في الزواج وأنا لا أعرف أحداً ولا يعرفني أحد... أصدقائي من الطلبة؟ هم يودون من الفتاة كل شيء ما عدا الزواج. رضا أجملهم وأشدهم حياء. لم ينجح في الامتحان بيد أنه لا يتخلف عن دروسه!... لكن الامتحان «كعصا الأعمي» كما يقولون... لو قضيت هذه العطلة في الجزائر لاستطعت أن ألقاه. لكن ما الفائدة؟ هو شديد الحياء، إذا قال لي «صباح الخير» يحمر وجهه بينما رفاقه الآخرون هم والخجل في اتجاه متعاكس: ينادونني «الصغيرة»... لست أدري لماذا؟ بيد أني أكبر من بعضهم جسماً وسناً! أمي أيضاً تعتبرني صغيرة وتعاملني معاملة الطفلة... أنا صغيرة! إنني أحس هذه الثماني عشرة سنة التي عشتها كأنها ثمانية عشر قرناً... كنت وأنا في السن الرابعة عشرة أشعر بعدُ بشخصيتي كامرأة!

واستمرت نفيسة في هذه الخواطر العابثة برهة من الزمن ثم قالت:

– «آه! يكفيني عبثاً بنفسي... يجب أن أقوم وأغتسل».

لم تقم ولم تغتسل، بل بقيت في فراشها، وأخذت أصابعها تحت غلالتها تلتمس صدرها في رفق وحنو، وشعرت بلذة غريبة تسري في أجزاء جسمها، لذة تشبه ما تجده الأم وهي ترضع صغيرها. ثم أخرجت يدها بحركة عفوية، وشخصت عيناها نحو الكوة وجسمها يرتعد وقالت مغمغمة:

– «أكاد أتفجر! أكاد أتفجر في هذه الصحراء!».

وفاضت عيناها بالدموع. وأردفت قائلة:

– «كل الطلبة يفرحون بعطلهم أما أنا فعطلتي أقضيها في منفى..».

كانت أمها في تلك اللحظة مقبلة تحمل بين يديها طبقاً يشتمل على صحن صغير به فطائر وإبريق قهوة وفنجان وسكرية. فتحت الباب فرأت نفيسة تبكي، فقالت لها بدهشة وحنو:

– «نفيسة! تبكين؟ مالك يا عزيزتي؟»

وضعت الطبق النحاسي فوق المنضدة واقتربت منها وهي تقول متسائلة:

– «مالك يا عزيزتي؟ هل أنت مريضة؟»

ارتمت نفيسة على أمها التي جلست إلى جانبها فوق السرير وانهالت بالبكاء ولم تجد الأم ما تروّح به عن ابنتها إلا الدموع. وبقيتا تبكيان متعانقتين، برهة من الوقت، ثم قالت الأم وقد هدأت دموعها:

– «مالك يا نفيسة؟ ما يبكيك، قولي: ما يبكيك؟».

فأجابت:

– «لا شيء أزمة دموع لا أكثر».

وأضافت وهي تمسح عينيها قائلة في ابتسام:

– «إنني مجنونة! أبكي بلا سبب...».

فردت الأم قائلة:

– «الله يسترك يا بنيتي. قولي. ألم تعجبك الإقامة بيننا؟»

فقالت نافية:







– «لا، لا... أحسست بضيق لا أكثر... ربما الحرّ هو السبب».
فقالت الأم:
– «لعلك حلمت أحلاماً فأزعجتك؟ أنا كذلك أصبح حزينة في بعض الأحيان عندما أحلم أحلاماً سيئة».
– «لا، لم أحلم، إنما أحسست بضيق ووحشة».
– «أبين أبويك وأهلك يا نفيسة!»
فردت على عتاب أمها قائلة:
– «آه! لست أدري كيف أشرح لك ما أشعر به يا أماه!»
– «قومي... اغسلي وجهك واطردي عنك هذه الوساوس يا بنيتي... لو كنت تصلين يا نفيسة لما شعرت بهذا الضيق...».
اشتمت في ذكر الصلاة تأنيب أمها لها فثارت حفيظتها ولكنها حاولت أن تكظم ذلك فأجابت معتذرة:
– «من الفتاة التي تصلي وهي في سنّي؟»
نظرت الأم إلى ابنتها في شيء من الاستنكار، وبدل أن تواصل حديثها عن الديانة وضرورتها لكل إنسان فضّلت أن تمسك عن كل تأنيب، وقالت في نفسها:
– «إن الفرنسية التي تعلمتها ستحيد بها لا محالة عن الطريق السوي».
ثم قالت لها ببرودة:
– «تلك القهوة فوق المنضدة، إنني وضعت بها السكر».
قالت ذلك وانصرفت إلى شؤونها وهي تتمتم بينها وبين نفسها:
– «انتصف النهار وهي ما تزال منبطحة في الفراش! من يرضى بالزواج من امرأة نؤوم، أبوها يجهد نفسه ويبذل أمواله لكي يخطبها منه شيخ البلدية... يظن أن ابنته لا تجاريها فتاة... ما فائدة قراءتها بالنسبة لزوجها إذا لم تكن تحسن كل ما يتعلق بالمنزل؟...».
انصرفت الأم إلى شؤونها وهي في هذا الحديث النفسي الطويل المتذمر، أما نفيسة فلم تقم ولم تغتسل وإنما اقتصرت على جذب الطبق النحاسي فوق المنضدة القريبة من سريرها فشربت قهوة، ثم انبطحت من جديد في فراشها كأنها تتحدّى ما تريد لها أمها. وقالت في نفسها بغضب: «الصلاة... لا يعرفون هنا إلا الصلاة والموت أما الحياة فهي وساوس شيطان!...» وانقلبت على وجهها في الفراش مدة سابحة في أفكار لا بداية لها ولا نهاية. ثم قامت في غضب وعنف ففتحت النافذة وعادت إلى فراشها وهي تقول: «لا أصلي!» وتقلبت يميناً وشمالاً، وكان الحرّ قد أخذ يتسلل إلى الحجرة، ثم اضطجعت على ظهرها، وبقيت كذلك فترة في ذهول... ومدت يدها إلى المائدة الصغيرة قرب السرير فأخذت كتاباً كان هناك.. نظرت في عنوانه لحظات وقالت: «هنا لا وجود للإخوة كرامازوف»... ولكن عندنا الإخوة «المستحمرون»... وراحت تقلب أوراق القصة عابثة، ونظرت إلى السطور وإذا ببيت من الشعر يستوقف نظرها:
– «أؤمن بما يحدثك به قلبك».
– «فالسموات لا تضمن شيئا».
ثم قلبت صفحات أخرى وقرأت فقرة تتحدث بما معناه:
«سوف تمر القرون والإنسانية لا تنفك تعلق على لسان علمائها وحكمائها بأن لا جريمة هناك ولا خطيئة قديمة وإنما هناك بشر جياع. أطعهم الأكل واطلب منهم بعدئذ أن يكونوا فضلاء...!».
ولكنها لم تستطع مواصلة القراءة فالسطور بدت لها أنهجاً! أنهج مدينة الجزائر وشوارعها الطويلة الملتوية... واستحلت إلى أشخاص تغدو وتروح في جلبة وحركة دائمة!...
وكانت منذ أن فتحت النافذة وهي تسمع أنغام ناي حزينة، متقطعة آتية من بعيد، أفرغ فيها صاحبها كل ما يفيض به قلبه من حنان ووحدة وشوق، أنغاماً صافية عذبة كأشعة القمر! وضعت الكتاب على صدرها بصورة عفوية، وراحت تصغي إلى الأنغام وتبحث في أعماقها عما تعبر عنه، وأنسيت في نفسها، في حجرتها الضيقة، في «منفاها» في «الصلاة» التي لامتها عنها أمها، في القصة المطروحة على صدرها، في «الإخوة كرامازوف»... أنسيت في الجزائر وشوارعها الطويلة الملتوية، وضجيج أطفالها الذي يملأ الطرقات... أنسيت في المكان والزمان، وحلقت بها الأنغام في سدم عليا لا آفاق لها ولا حدود...
ليست هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها أنغام الناي، ولكنها في الماضي كانت لا تصل سمعها حتى تمجها، لما توحي به إليها من قساوة حياة البادية وشظف عيشها... كانت صغيرة لم ترهف شعورها السنون، أما الآن فشبابها الناضج صير جسمها وكل كيانها جهازاً متوتراً... وغاصت وراء الأنغام تستكنه ما توحي به من مكنونات الريف وأسرار جماله وتخيلتها صارت أجنحة خفاقة وهي فوقها، أجنحة تعلو بها، تعلو بها أبداً إلى أجواء كلها صفاء وإشراق، وكلها طهر وسحر. وتمثلت نفسها قد وصلت بعد تحليقها إلى ربوة عالية وراء السدم واستقرت عليها، وإذا بها تجد نفسها جالسة إلى جانب عازف الناي! كان يشبه أميراً، له كوكب وحده، أجمل من «أمير سانت ايكزوبري»: وكوكبه له يسكنه غيره سوى أغنامه. وتخيلت أن هذا الأمير لم يحفل بها وراح يعزف ألحانه إلى غنمه وخرافه، متنقلاً بها من مرج إلى أخصب منه، من عين صافية إلى أخرى أصفى وأعذب يناديها فتستجيب ويأمرها فتطيع ويعزف لها حنانه وشوقه على نايه فإذا هي نشوى فسكرى، وإذا هي ترد على ألحانه بأرق ما تستطيع من ثغاء عذب جميل!... في هذا الجو الحالم اقتحم أذنيها صوت ينادي من بعيد على أخيها عبد القادر، فقامت مسرعة إلى النافذة تنظر من المنادي.
رأت من بعيد العجوز رحمة صانعة الفخار مقبلة في تعثر، تحمل فوق ظهرها قفة من حلفاء يشدها إلى صدرها حبل، فسُرَّت لمقدمها ونادتها من النافذة:
– «تعالي يا خالة، تعالي».
وخرجت من حجرتها مسرعة لملاقاتها عند الباب الخارجي، وبالمراح التقت بأمها فسألتها هذه باستنكار:
– «من هذه المنادية مع الصباح؟»
فأجابتها بسرور:
– «خالتي رحمة! خالتي رحمة!»
زال عن الأم استنكارها إذ عرفت الزائرة، وتذكرت أنها معها على موعد لتذهبا سوياً إلى زيارة المقبرة. وقالت:
– «نسيت تماماً... اليوم الجمعة».
كانت العجوز رحمة تمشي الهوينا في كلل بيّن، رجلاها تتحركان في بطء وتعثر كأنهما تتنقلان فوق الشوك. وفعلاً كان المسلك الذي تسير فيه لا يخلو من شوك وقالت وقد اقتربت من الدار وهي ترى نفيسة تنتظرها بالباب:
– «لست أدري أرجلاي هما اللتان تحملان جسمي، أم جسمي هو الذي يحمل رجلي!»
فأجابتها نفيسة بابتسام:
– «إنك تزعمين الكبر وأنت لا تزالين صغيرة. لم تتغيري أبداً فمنذ عرفتك وأنت هكذا...»
فردت العجوز مؤكدة في هدوء حزين:
– «إيه، يا بنيتي! المثل يقول: «ما يدري بالمزود غير اللي ضرب به وإلا انضرب به»... يوم أن كنت صحيحة حقاً كنت لا أخاف الشوك ولا أحذره، أما اليوم فالعشب اليابس يؤلم قدمي فضلاً عن الشوك! كيف أنت؟ كيف صحتك يا بنيتي؟ كيف تجدين نفسك في دشرتنا هذه؟...»
احتضنتها نفيسة وراحت تقبلها قبلات مليئة بما تكنّه لها من ودّ. وكانت تحبها فهي تجد فيها أكثر من فضيلة، ثم إن حكاياتها وما ترويه من أمثال وطرف، وصفاء روحها وقناعتها، كل ذلك يجعل نفيسة تحبها، ويجعل جميع من يعرفها يحبها ويبجلها. ودخلت وحاولت نفيسة أن تحمل عنها القفة فامتنعت قائلة:
– «لا عليك، ليست ثقيلة، فيها بعض الأواني فقط».
ففاهت نفيسة قائلة بضحك وتعجب:
– «دائماً مع الأواني والفخار يا خالة!»
فأجابت العجوز بتصميم وبلهجة هادئة مؤمنة:
– «أنا والفخار إلى الأبد».
ثم وجهت سؤالها إلى خيرة أم نفيسة وكانت هذه قد أقبلت مرحبة مستبشرة:
– «كيف أنت يا خيرة؟ لا شك أنك مسرورة بنفيسة إلى جانبك؟ ها هي ذي صارت امرأة كاملة من كل شيء...!»
فقالت الأم وقد بلعت ريقها كالمترددة:
– «لا... لا باس، الحمد لله على ما قدر الله! وأنت يا خالة كيف أحوالك؟ كيف أنت مع هذه الحرارة؟»
– «لا بأس، كما يقول المثل: زناكلوا في القوت ونستنوا الموت! لا باس...»
ودخلت ثلاثتهنّ إلى بيت العائلة، الحجرة التي يجتمع فيها كل أفراد العائلة، والتي هي في نفس الوقت تعد بمثابة حجرة الاستقبال

وحجرة الأكل، وأحياناً المطبخة ولا سيما في الشتاء. ثم هي أيضاً نفس الحجرة التي تنام فيها أم نفيسة...

ليس في هذه الحجرة ما يلفت النظر فهي كآلاف البيوت القروية المعدة لاجتماع أفراد الأسرة، في أحد حيطانها ألصقت لوحة مستطيلة، فوقها علب وحقق زجاجات وفي الحائط المقابل علقت غرابيل وأوانٍ فخارية من ذات المعاليق. في الزاوية صندوق كبير من خشب أخضر اللون، به رسوم لحيتان وورود، هو صندوق أم نفيسة الذي تحفظ فيه أثوابها ومصوغاتها وكل مقتنياتها...

جلست العجوز رحمة ونفيسة أما خيرة فذهبت تسخن القهوة للعجوز، وأخرجت العجوز من قفتها ثلاثة أكواب جديدة ومثرداً من فخار، وقالت:

– «هذا الكوب لك يا نفيسة، أرأيت هذه الوردة المرسومة عليه؟ إنه لك صنعته من أجلك، وهذا الصغير لعبد القادر، أما هذا الذي رسمت فيه عرجوناً فهو لسي عابد (أب نفيسة) وهذا المثرد لخيرة».

– «شكراً يا خالة، شكراً، إنه كوب جميل. سآخذه معي إلى الجزائر عندما أعود في الخريف».

حركت العجوز رحمة رأسها حركة لا تدل على نفي ولا إثبات. وهي في الواقع بتلك الحركة العفوية أبدت شكها فيما ذكرته نفيسة من أنها ترجع إلى الجزائر في الخريف..

وأقبلت خيرة بالقهوة، وإذ رأتها العجوز قالت:

– «لماذا القهوة يا خيرة؟ لقد شربت...»

– «كل قهوة ولذتها. إنني أعددتها من قبل... لست أدري كيف تجدينها؟»

فقالت العجوز:

– «أجدها لذيذة، لا شك في ذلك: فمتى كانت قهوتك غير طيبة؟»

وملأت فنجاناً ناولته للعجوز وثانياً لنفيسة ولكن هذه امتنعت قائلة:

– «شكراً، لا أستطيع... إنني لا أحب القهوة كثيراً».

فقالت العجوز:

– «أنا أتعجب ممن لا يحب القهوة! إنني لولاها لما استطعت القيام ولا القعود».

فنصحت نفيسة قائلة:

– «إن الإكثار منها مضر يا خالة. لا تصلح لا للكبير ولا للصغير».

فردت العجوز:

– «دعك يا بنيتي من هذا القول. بنت الحسن الشاذلي لا تضر!»

لم تفهم نفيسة جيداً ما تعني العجوز فسألتها قائلة:

– «من هذه بنت الحسن الشاذلي يا خالة؟»

– «الشاذلية... ألا تعرفين الشاذلية بنت الحسن الشاذلي؟ إنها القهوة يا بنيتي. وسيدي حسن الشاذلي هو الذي اهتدى إليها وعرف سرها... هو يا بنيتي، سيدي حسن الشاذلي رضي الله عنه الذي عرّف الناس بها، وأول من شربها».

لم تشأ نفيسة أن تعارض العجوز ولا أن تذكر لها ما قرأته عن قصة القهوة والبلدان التي توجد بها. فكل سكان القرية يسمونها «الشاذلية» ويقسمون بها، فلو أن نفيسة ذكرت ما تعرف عن قصة القهوة لما صدق ما تقوله أحد. هناك أشياء كثيرة لا تعدو أن تكون أساطير وخرافات، ولكن إيمان الشعب بها يعطي لها حياة ووجوداً لا يقبل المناقشة.

وأضافت العجوز مبينة بعض أسرار القهوة فقالت:

– «هي سوداء يا بنيتي وأفعالها بيض!»

وإذ لاحظت أن نفيسة لم تجبها بشيء فهمت أنها ربما لم تصب المرمى فقالت مستطردة:

– «هنا يا بنيتي لا يضرنا شرب القهوة لأنها عزيزة عندنا، لا نشربها في كل وقت. ثم ليس عندنا ما نشرب سواها... أما في المدن فربما تضر لأنهم يشربونها في كل وقت، بمناسبة وبغير مناسبة».

فأجابت نفيسة مصدقةً:

– «صحيح في الجزائر القهوة كالماء دائماً جاهزة».

– «أرأيت؟ إن القهوة واحدة وسرها لدى الناس يختلف! كل شيء مع الإسراف يضرّ».

وكانت خيرة أم نفيسة لا تشارك في الحديث لا لعدم اكتراث ولكن طبعها كذلك، ثم حياتها الزوجية لم تعودها الحديث بقدر ما عودتها الصمت. وإذ رأت العجوز أتمت فنجانها قالت:

– «أنذهب يا خالة إلى المقبرة؟»

– «نعم، ولذلك جئت. إن اليوم جمعة، لا بد من زيارة موتانا».

فسألت نفيسة أمها:

– «وأنا؟ أأذهب معكما أم لا؟»

فردت أمها قائلة:

– «والدار؟ لمن نتركها؟»

فقالت العجوز:

– «يجب أن تذهب معنا نفيسة يا خيرة. الدار أغلقيها كما فعلت أنا. اليوم السوق، الدشرة خالية. كل الناس تسوقوا... يجب أن تذهب معنا، على الأقل لتسرّح رجليها... أليس كذلك يا نفيسة؟»

فأجابت هذه:

– «أرغب في ذلك يا خالة! أو أن أرى الدنيا، إنني اختنقت في هذا السجن».

الطريق الموصلة إلى المقبرة هي الوحيدة التي لا تكثر فيها الانعراجات والصعود والهبوط في هذه القرية! والمكان الذي تقع فيه المقبرة أحسن موقع، اعتدالاً وانشراحاً. لكن الموتى وإن أخذوا من القرية أجمل مكان فهم لم يستطيعوا فرض احترام مقرّهم الأبدي على الناس، فعندما وصلت العجوز ونفيسة وأمها إلى المقبرة كانت ثلاثة أحمرة ترعى فوق القبور!...

وقالت نفيسة في امتعاض:

– «إنه مجرم هذا الذي ترك أحمرته تدوس الموتى!»

فقالت العجوز:

– «كل السكان يتركون مواشيهم ترعى بالمقبرة».

وقالت خيرة:

– «لم يحترموا الأحياء فضلاً عن الموتى»!

وقالت نفيسة متسائلة:

– «لماذا لا يقيمون سياجاً حول المقبرة؟ وهكذا تُصان من كل شيء».

فأجابت العجوز بابتسام حزين:

– «إيه يا بنيتي، إن الناس لم يستطيعوا صيانة دورهم وبساتينهم فضلاً عن المقبرة!»

فقالت نفيسة:

– «من الشح!»

فردت العجوز:

– «من الفقر!»

فعقبت خيرة قائلة:

– «ليس كل الناس فقراء وليسوا كلهم أشحاء ولكنهم جميعاً مفرطون، لا يتذكرون المقبرة إلا يوم الدفن».

واتجهت العجوز نحو قبر زوجها، وذهبت خيرة وابنتها إلى قبر أمها.

وجلست العجوز أمام قبر مغطى بالأواني الفخارية، وقالت مخاطبة زوجها الذي مضى على وفاته أكثر من عشرين سنة:

– «ها أنا كما ترى ما زلت أدرج... جئتك بهذا الكوب الصغير الذي صنعته في الأيام الماضية. هذا ما أستطيع أن أفعل في سبيلك. أضع آنية فوق قبرك لعلّ روحك تشرب مما يتجمع فيها من ماء مطر. ليس عندي ما أتصدق به عن روحك إلا الأواني التي أصنعها. لو كان بيدي مال لتصدقت كل جمعة بالطعام، ولكنك تعرف ما أنا فيه... حتى جسمي وهن وصرت لا أحمل قفة التراب من المحفر إلى البيت إلا بعناء ومشقة. يوم الإثنين الماضي سقطتُ وقفّة التراب على ظهري مشدودة. صارت أقلُّ حركة مختلة تهوي بي إلى الأرض... لم يبق لدي التراب لصنع الأواني وكانت الريح عنيفة فخشيت أن يتغير الجو وينزل المطر وأبقى بلا عمل... ثقلت يدي وصارت ترتعش عندما آخذ في صقل الآنية... هذا ما قدر الله! تجري الأيام ونجري وكل يلتقي بيومه في ميعاده».

سكتت لحظات ثم استطردت قائلة:

– «نسيت أن أقول لك... ما زلت لم أهتد إلى صنع الأواني التي حدثتك عنها في الماضي. كلما أصنع آنية جديدة أجد في النهاية أن شيئاً ينقصها، لست أدري لماذا؟ صحيح أن يديّ لم تعودا كالماضي لينتين طيعتين، ولكنهما ما زالتا تستطيعان بناء أدق الأشكال. لا، ليست يداي هما اللتان لم تهتديا إلى صنع ما أريد، إنما عقلي هو الذي لم يجد الصورة التي تطابق إحساسي... أحب أن أصنع أواني إذا رأيتها من بعيد لا تفرق بينها وبين الأواني القديمة ولكن إذا اقتربت منها وأمعنت النظر فيها وجدتها جديدة في البناء؟ في الصقل في الزخرفة؟ في كل شيء! قالت لي نفيسة، تلك الفتاة الجالسة هناك إلى جانب أمها... أنت لا تعرفها، ولدت بعد وفاتك. قالت لي، عندها كتب فيها كثير من صور الأواني، وعرضت عليّ أن ترينيها لأصنع مثلها. قلت لها: أنا أحب أن أصنع أواني جديدة لم يصنعها أحد... هي مسكينة تريد مساعدتي وتعتقد أني أريد صنع ما لا مثيل له في بلادنا (قريتنا)... لكن أنا أبحث عن شيء آخر، يعرفه قلبي ولم تستطع صنعه يداي. هي تقرأ بالجزائر، ولكن في هذه السنة لا أظنّ أباها يتركها تواصل قراءتها. قالت لي أمها ذلك، قالت يريدون تزويجها بمالك بن خضرة، تركته أنت طفلاً، وهو الآن شيخ بلدية... في الأسبوع الماضي ذكروا توزيع الدقيق على السكان، ولكن لحد الآن لم يظهر شيء؟ لعل هذه العشية يعود المتسوقون بأخبار جديدة. اليوم الدشرة خالية، ذهب الناس كلهم إلى سوق الجمعة لحضور تدشين بناء الجامع الجديد... لست أدري لمن تبنى هذه المساجد؟ الناس لا يصلون، لا يصلون ولا يعملون. فمنذ الاستقلال وهم لا يعرفون إلا القيل والقال!...»

بقيت العجوز في هذه الاستطرادات الطويلة المتتالية، تحدث زوجها الميت عن كل ما دب وهب بالقرية!...

أما نفيسة فكانت جالسة إلى جانب أمها، وكانت دموع هذه تسيل على خديها. وكانت تقول في نفسها:

– «إيه يا أمي العزيزة! أودت بحياتك الحرب أنت والحسين. وتركتني وحدي للشقاء...»

وكان حينئذ أحد الأحمرة الثلاثة قد توقف عن السرح وأخذ «يغازل» أتاناً... وحانت من نفيسة التفاتة فرأت الحمار مستقضباً يستعد لاعتلاء الأتان فحولت بصرها، وقالت في نفسها بامتعاض:

– «يا للفظاعة! بالمقبرة...» لكن الفضول الغريزي لدى الفتاة دفعها مرة أخرى إلى النظر في هذه الحادثة الغريبة التي تشاهدها لأول مرة في حياتها... وما أحدثه المنظر في نفسها من شعور ليس يسيراً تصويره. على أي حال غباوة الأحمرة مكنتها من مشاهدة «العملية» من البداية إلى النهاية، وعرّفتها رغماً عنها، بحقيقة طبيعية. بيد أنه إن كان من المؤكد أن الحمار لن يلد إلا حماراً. وإذن فالمقبرة والمزرعة بالنسبة إليه سواء، فإن الإنسان غير ذلك... قد يلد إنساناً، وقد يلد حماراً لا يفرق أيضاً بين المقبرة والمزرعة في مثل هذا وغيره من أنواع السلوك، وهي كإنسان منحتها الطبيعة كل الاستعدادات التي تمكنها من التصرف الواعي فلا يمكنها بحال أن تستسيغ بأن يصير مكان الفناء والموت مسرحاً لعملية البقاء والاستمرار. وقالت: «بالمقبرة!... فظيع أن يجري مثل هذا بالمقبرة...»

وشغلت نفيسة عن أمها وعن الموتى بما شاهدته. واسترسلت مع أفكارها المتضاربة المتسابقة حول أشياء يصعب تصويرها. أما أمها فلم تكن ترى ما يجري فوق المقبرة، كان بصرها ينتقل وئيداً في المساحة الضيقة التي يشكلها قبر أمها... وكانت أفكارها تتداعى نحو الماضي البعيد حيث كانت فتاة ولا كفتيات هذا الجيل... حيث كانت ترى الحياة والأشياء من خلال زاوية نظر أمها... تحب من تحب هذه وتكره من تكره، وتفرح لفرحها وتبكي لبكائها. وقالت في نفسها:

– «ها هي ذي ابنتي إلى جانبي، لا تحرك ساكناً، ولا تأبه لدموعي أو أحزاني...»

وخاطبت أمها الميتة في نفسها:

– «أنا كانت دموعي امتداداً لدموعك يا أماه! وكان سروري بسرورك...»

وقامت نفيسة واتجهت نحو العجوز وتركت أمها. وكانت العجوز قد أنهت حديثها الطويل مع زوجها الميت، وإذ رأت الفتاة مقبلة قالت:

– «كنت أنوي اللحاق بكما، وها أنك سبقتني».

فقالت الفتاة سائلة بدهشة وهي تشاهد القبر مغطى بالأواني:

– «لماذا كل هذه الأواني يا خالة؟»

– «لتشرب منها الطير وينال المرحوم ثواب ذلك».

– «ولكنها فارغة».

– «عندما ينزل المطر يتجمع الماء فيها».

– «وإذا لم ينزل المطر؟»

أجابت العجوز بعد صمت قصير:

– «وإذا لم ينزل المطر... حينئذ لن يبقى فرق بين الأحياء والموتى!»

وسألتها نفيسة عن زوجها:

– «كم مضى على وفاة خالي الأخضر يا خالة؟»

فأجابت العجوز وقد ارتسمت سيماء التفكير على ملامحها:

– «مات في عام «البون» (تقسيط بيع المواد الغذائية)».

وكان عام «البون» هذا من أعوام الحرب العالمية الثانية. وعملية تقسيط بيع المواد الغذائية على السكان امتدت من حوالي 1948 إلى سنة 1949. وكان معظم سني الحرب سني جدب ومجاعة. فشمل ذلك التقسيط القرى والمداشر. وكان لكل أسرة ورقة بها عدد أفرادها يستظهر بها صاحبها في نهاية كل شهر لدى البائع المعتمد من طرف السلطة الحاكمة لشراء بعض المواد الغذائية كالدقيق والزيت والصابون والقهوة والسكر. وكان ما يوزع على السكان من غذاء، فاسداً في معظمه. فانتشر الوباء في القرى، فكان الموت يحصد الناس حصداً...

وبعد صمت دام لحظات بين العجوز والفتاة قالت هذه:

– «أمي كانت تبكي على جدّة».

– «أنا جفت عيناي من الدمع. ثم لِمَ البكاء؟ ما الفرق بين حياتي وموته؟ (زوجها)».

فردت نفيسة قائلة:

– «مهما كانت الحياة فهي خير من الموت».

– «لا، ليس دائماً».

واستطردت قائلة وقد شاهدت أم نفيسة مقبلة نحوهما:

– «لقد مكثنا طويلاً. يجب أن نعود. هذه أمك قد أتمت ترحمها».

وسألت خيرة العجوز:

– «أنعود يا خالة؟»

– «نعم، لقد طولنا. أأنهيت زيارتك؟»

فتمتمت أم نفيسة بنبرات تنم عن حزن:

– «إننا نزور القبور عادة، أما موتانا فهم مدفونون بقلوبنا».

فقالت العجوز:

– «إيه يا بنيتي، لقد أشقينا الموتى بشقائنا».

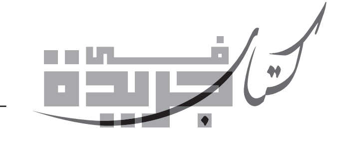
وغادرت ثلاثتهن المقبرة عائدات إلى الدار. وكان الحرّ قد اشتدّ فخلت القرية من كل حركة، واستحالت آفاقها الصافية إلى آفاق معتمة بغيوم الحرّ، وبدت السماء ملتصقة بالأرض. وكنّ وهنّ عائدات يستمعن إلى أنغام ناي آتية من سفح الجبل المشرف على القرية. أنغام تتحدى الحرّ والغيوم. فتوقفت العجوز قليلاً وقالت:

– «لولا هذا الناي لظننا القرية خلت من سكانها

منذ سنين».
وقالت خيرة:
– «هذا رابح الراعي الذي يعزف...»
وقالت نفيسة:
– «لا شك أنه سعيد مع الغنم!»

عندما وصلن إلى الدار ذهبت نفيسة إلى حجرتها لتبدل ملابسها ودخلت الأم والعجوز إلى البيت الذي تجتمع به العائلة، وكانت الأم يبدو عليها حزن واهتمام، فسألتها العجوز:
– «مالك يا خيرة إني أراك مغتمة؟»
– «لا شيء يا خالة».
قالت ذلك آلياً ولو تأنت لأجابت العجوز بصدق، ولحدثتها طويلاً عما يشغلها. لكن هذه أدركت بحدسها أن النفي المقتضب الذي أجابت به الأم يدل على أن شيئاً ما يشغل نفسها فاستدرجتها قائلة:
– «زيارة المقبرة هي التي أثرت فيك. لا تفكري كثيراً في الموتى فمصيرنا جميعاً إلى هناك يا خيرة!»
– «لم تحزني زيارة المقبرة، إن الذي يحزن الأحياء هم الأحياء يا خالة. أرأيت نفيسة أمام قبر جدتها؟ لقد كادت تنكر علي أن أبكي على أمي!...»
سكتت لحظة وأضافت قائلة:
– «لم تقل شيئاً ولكنها لم تنظر إلى دموعي كما تنظر بنت. ألا يحزن هذا يا خالة؟ ألا يحزنك أن تري ابنتك لا تشاركك بآهة ولا بدمعة وأنت تبكين؟»
فأجابت العجوز تهوّن عليها:
– «نفيسة يا خيرة ما تزال فتاة لا تعرف معنى للموت ولا للحياة. فإذا لم تبك لبكائك فليس لأنها لا تحبك ولكن لأنها لا تحسن الكذب بالدموع كما تفعل النساء».
– «لا يا خالة. جرح الكبد لا يضرّ إلا صاحبه، كما يقول المثل. إنها تكرهني منذ أن عادت من الجزائر وهي لا هم لها إلا الكتب والغناء أو البكاء أحياناً كالمجنونة. لم تفكر يوماً في مساعدتي وهي تراني كل يوم أول من يقوم صباحاً وآخر من ينام مساء. ما تزال فتاة... أنا لا أطلب منها حلب الغنم ولا كنس المرابض ولكن أن تساعدني في العجين وغسل الثياب».
حاولت العجوز أن تخفف من وجد خيرة على ابنتها فقالت:
– «إن قراءتها تشغلها يا خيرة».
– «إنها تكره العمل، تكره أن تكون مثل أي بنت، تعين أمها في شؤون المنزل. والقراءة التي تكرّه في العمل لا خير فيها».
– «عوديها أنت على العمل يا خيرة».
– «كيف أعودها على العمل؟ كيف أعوّد من بلغت الثامنة عشرة؟ إن القهوة التي تشربها كل صباح، لو لم أحملها إليها أنا لما شربتها...»
– «أنت المخطئة... دعيها تعدّ القهوة هي، وتغسل ثيابها بنفسها».
– «إنني لا أدري، والله، من أي طريق أصل إليها؟»
– «الطريق هي هذه، كما يقول المثل: «لا تكن حلوا فتبلع ولا مرّاً فتدفع» وعلى كل سأحدثها أنا... هي تقدّر نصيحتي».
– «دعيها تفعل ما تشاء. المثل يقول: «من لا يحدثه قلبه لا يفيد تذكيره».
وخطر للعجوز أن تتأكد من قضية زواج نفيسة فقالت:
– «قولي يا خيرة، هل صحيح أن مالكاً خطب نفيسة؟»
فأجابت خيرة بلهجة تنم عن صدق:
– «لا أستطيع أن أكذب ولا أن أصدق... سمعت أنا أيضاً ذلك. لكن أباها لحد الآن لم يذكر لي شيئاً في هذا الموضوع».
فقالت العجوز:
– «وأنت ما هو رأيك؟ لو صدق أنه خطبها؟»
– «لست أدري يا خالة والله. مالك عزيز علينا وعدو لنا... أنت تعرفي ما وقع...»
فردت العجوز بحدّة قائلة:
– «لم يكن مالك في يوم من الأيام عدواً لكم يا خيرة. أنت غالطة. يحبكم أكثر من كل الناس. اسأليني أنا... أنا التي أعرفه أكثر من كل أحد. ما وقع أثناء الثورة كان قدراً محضاً. من ذا يستطيع أن يتسبب في قتل أعزّ الناس لديه؟ وزليخة كانت أحب مخلوق إلى نفسه... لم أره ضاحكاً منذ أن قتلت زليخة. إن حزنه ما زال لحد الآن يملأ نفسه وحياته».
فقالت خيرة متنهدة:
– «آه! يا خالة... كانت زليخة كالوردة، ذهبت حياتها وهي في مقتبل الحياة، ذهبت ضحية بريئة...»
وغلبت الدموع خيرة وهي تتحدث عن هذه الذكرى الأليمة التي ذهبت فيها ابنتها زليخة ضحية تقدير خاطئ أثناء الثورة، كما ذهب الآلاف من الجزائريين...
وإذا رأت العجوز خيرة تبكي قالت:
– «لا تبكي يا خيرة، إن أيام الأحزان تقابلها أيام المسرات. والثورة الآن انتهت، ونحن سعداء في أرضنا. من ظن أننا نحيا حتى الآن؟ ألا تذكرين تلك الأيام السوداء التي عشناها؟ كانت أياماً تشبه القرون ومع ذلك انقضت والحمد لله. هددت فرنسا وزمجرت وملأت الأرض والسماء دوياً، ولكنها في النهاية انكسرت وانسحبت وبقيت الأرض لأهلها...»
فقاطعتها خيرة قائلة:
– «وبقيت لنا الذكريات المؤلمة. دفنا أخيارنا يا خالة».
فقالت العجوز:
– «إيه يا بنيتي! من حل أجله دفناه وبكيناه، ومن نجا حمدنا له النجاة. وهكذا الحياة. لكن جراحنا لا ينبغي أن تبقى مفتوحة يا خيرة، يجب تضميدها ولنحمد الله على كل حال. لو رأيت كم تعذب مالك أيام كان جريحاً عندي بين الموت والحياة! ولو رأيت كم أحزنه موت زليخة...»
فردت خيرة بلهجة عتاب وهي تدرك أن القرابة التي بين العجوز وشيخ البلدية قرابة بعيدة، تكاد تكون مثل ما بين معظم سكان القرية من روابط دموية وقالت:
– «لكن مالك يا خالة، لم يَبدُ أبداً أنه كان خطيب زليخة في يوم من الأيام فمنذ تلك الحادثة الرهيبة التي جُرح فيها لم يقف ببيتنا. وجاء الاستقلال وانتهت الحرب ولكنه ازداد ابتعاداً عنا وجفاءً... لماذا؟»
بينما هما في حديثهما وإذا بنفيسة تدخل، بوجه مستبشر مرح القسمات، تلبس فستاناً أزرق من الحرير الصناعي، به زهيرات بيضاء كثيرة، من زهر اللوز. أرسلت شعرها في خصلة واحدة على صدرها فوصل إلى حزام «البلاستيك» الأبيض الذي تتحزم به. واعتذرت إلى العجوز قائلة في ابتسام:
– «كنت بصدد ضفر شعري يا خالة ولذلك تأخرت».
وفكرت العجوز أن تنصرف فوضعت يديها على الأرض لتستعين بهما على القيام، وقالت وهي منحنية:
– «لقد انتصف النهار... أبقيكم على خير. إنني...»
فقاطعتها نفيسة قائلة في عتاب:
– «كيف يا خالة تفعلين هذا؟... عندما دخلت أزمعت الانصراف».
– «لقد انتصف النهار، وقرب رجوع المتسوقين».
فقالت لها نفيسة:
– «مالك والنهار أن ينتصف أو ينصرف، والمتسوقين أن يعودوا بعد قليل أو بعد كثير».
وقالت خيرة تؤيد ابنتها:
– «لن ندعك تذهبين إلا بعد الغداء».
فشكرت العجوز رحمة الأم وابنتها وأكدت لهما أنها لا تستطيع البقاء لتناول الغداء. إذ أنها أوصت أحد الجيران ليشتري لها من السوق بعض الأشياء. ولكن نفيسة أقسمت لها أن لا تذهب قبل تناول الغداء، وقالت:
– «إنك لا تأتين وإذا أتيت فلا تفتئين تتذرعين بمختلف الذرائع للعودة إلى دارك، كما لو أن بقاءك معنا يحرجنا...»
– «لا يا بنيتي، المثل يقول: «لا تمشي الأرجل إلا حيث يحب القلب». وأنا أحبكم».
فقالت لها نفيسة:
– «إن كنت تحبيننا فاقعدي معنا حتى الغداء».
بدا للعجوز أن تشترط شرطاً للبقاء فقالت لنفيسة:
– «أقعد لتناول الغداء إذا أعددته أنت».
فابتسمت نفيسة وأبدت تحرجاً مما طلبته العجوز قائلة:
– «لكنني لا أحسن إعداد الطعام يا خالة! أقصد طعام... هنا».
كادت تقول طعام البادية، ولكنها خشيت أن تمس عواطف العجوز أو عواطف أمها فقالت: «طعام هنا».
وتكلمت خيرة فقالت:
– «الطعام أنا التي أعده يا خالة، ألا يعجبك طعامي؟»
نظرت إليها العجوز نظرة مؤاخذة وقالت:
– «دعي نفيسة تعدّ الطعام، إنك لا تستطيعين أن تعملي كل شيء وحدك».
فتنهدت خيرة وهي تقول:
– «آه يا خالة! لقد تعودت أن أقوم وحدي بكل شيء...»
فأوضحت العجوز قائلة في نصح:
– «إن نفيسة صارت الآن امرأة (في سن الزواج) فإن لم تتعلم الطبخ والشؤون المنزلية عندك فأين تتعلم؟»
فردت نفيسة على العجوز في ابتسام قائلة:
– «أحسن الطبخ والخياطة والطرز وكل الشؤون المنزلية يا خالة... تعلمت ذلك بالمدرسة وكذلك لدى خالتي زبيدة».
فقالت العجوز متعجبة:
– «لقد قلت منذ حين إنك لا تحسنين الطبخ، أم أني لم أسمع جيداً؟» فردت نفيسة في حنوّ:
– «لا أحسن إعداد الأطعمة التي تصنع بالبادية يا خالة، أما غيرها فأحسن كل شيء».
وكانت الأم أثناء ذلك قامت لتهيئة الطعام.
فقالت العجوز:
– «ليس هناك أسهل من تعلم أصناف المآكل التي نعدها هنا. انظري إلى أمك واعملي مثل ما تعمل».
فكرت نفيسة قليلاً في كلام العجوز، وحاولت أن تتصور جدواه من خلال ما تحلم به من حياة لها في المستقبل، فلم تجد أي نقطة للمقارنة بين هذه الحياة الساذجة البسيطة التي يحياها أهلها وكل





سكان البادية، وبين الحياة الحضرية المعقدة التي عاشت منها قليلاً لدى خالتها بالجزائر وقرأت عنها الكثير في الكتب والقصص السينمائية... أين هذه الحياة من حياة «سيسي الإمبراطورة» و«الأميرة ثريا» و«اليزابيت تايلور»، أو «الاميرة كراس» وغيرهن من الأسماء اللامعة التي تكاد تكون حروفها قدّت من نور؟ إنها لا تفكر في أن تتزوج بالبادية وتحيا فيها حياتها فذلك أسفل ما يمكن أن ينزل إليه خيالها. وخصوصاً أنها تعرف قصة أختها زليخة التي رضيت بالزواج من ذلك الفتى القروي مالك الثائر الذي كان سبب قتلها والذي هو الآن شيخ بلدية... لا لا، هذا لا يكون، الزواج بالبادية شيء غريب جداً وبشع إلى درجة قصوى، وإذن ما الفائدة في أن تتعلم حِرَف البادية؟ إن الحياة التي تحياها الآن بين أهلها لا تختلف عما قرأته بخصوص عصور ما قبل التاريخ!

– «أنظر إلى أمي وأعمل مثل ما تعمل!... مسكينة هذه العجوز الطيبة! إنها لا تدري أنني لا أريد أن أكون مثل أمي...»

كل هذه الخواطر مرت بذهنها في لحظات، ورأت أن لا تبدي للعجوز منها شيئاً، وإنما تقول لها فقط:

– «إنني مشغولة بمراجعة دروسي يا خالة، ثم إني لو حاولت أن أتعلم صنع ما يصنع هنا لكسرت كل الأواني أو لأحرقت نفسي، وما الفائدة من كل ذلك؟»

استشفت العجوز من كلام نفيسة ما تقصده، ولكنها أكدت قائلة مع ذلك:

– «المثل يقول: «تعلم صنعة وأخفيها». كل شيء نتعلمه مفيد، ما لا يفيد لا يوجد. أما الأواني فلا تشفقي. كسريها عمداً إن شئت فأنا أصنع لك ما تريدين».

شعرت نفيسة بمضايقة العجوز لها ولم تجد بماذا تفسر ذلك! فهي تدرك أن العجوز ليست ثرثارة ولا ملحاحاً، ولكنها بخصوص تعلم إعداد أطعمة البادية ها هي تلح إلى حدّ بعيد!... طبعاً لم تفكر أن أمها هي السبب وأن ما يجري من إشاعات حول خطبة مالك لها له دخله في هذا الإلحاح من طرف العجوز...

وشاءت بالرغم من ذلك أن لا تظهر للعجوز تضايقها، وقالت لها في ابتسام:

– «شكراً يا خالة. لقد أصبت. لكن بدل أن تصنعي لي الأواني التي قد أكسرها علميني هكذا... بالكلام!»

ضحكت العجوز من هذه السذاجة البريئة وقالت في نفسها:

– «لعل كل من يقرأ يفكر أن التعلم يكفي بالكلام؟ لو كان ذلك ممكناً لما تشققت أصابعي من الطين!»

وأخذت تتلمس أصابع يدها اليمنى التي بها تصقل الأواني... كأنها تحاول أن تتأكد من رأيها في أن تَعلُّمَ أي شيء يتوقف على شيء آخر غير الكلام: «على الدربة الطويلة والمعاناة، على الانسجام الكامل بين التصور والفعل، على الرابطة الخفية بين الصانع والمصنوع...»

– «بالكلام!... لو رأت عرقي يتصبب وأنا أرقم آنية أو أصقلها!... لو رأت ماذا ستصير إليه أتعابي وعرقي!... لو عرفت كل ذلك لأدركت أن التعلم بالكلام حلم من الأحلام!»

وإذ رأتها نفيسة تضحك سألتها:

– «ما أضحكك يا خالة؟!»

– «أضحكني كلامك... تريدين أن تتعلمي بالكلام!»

– «نعم يا خالة... هناك كتب تباع خاصة بالطبخ، بها كل التفاصيل التي تتعلق بإعداد أيّ نوع من أنواع الطبخ لكن ليس بها ذكر لما يصنع بالبادية من طعام ما عدا «الكسكسي». ولذلك أحببت أن تحدثيني عنها وأنا أكتب كيفية إعداد كل صنف».

فقالت العجوز سائلة:

– «هل تستطيعين صنع الأواني إن حدثتك عن كيفيات صنعها؟ كلا يا عزيزتي. إن الحديث لا يكفي...»

– «صحيح، ولكني مع ذلك إن كتبت كل طبخة بتفصيل واحتجت يوماً إلى إعدادها فسوف أعدها. طبعاً أعرف إني سوف لا أنجح في المحاولة الأولى ولكني سأنجح في النهاية».

تهلل وجه العجوز وهي ترى نفيسة ترجع إلى رأيها وقالت:

– «أرأيت؟ لا بد من العمل!...»

ومرت لحظات صمت بين نفيسة والعجوز أما خيرة فكانت بصدد إعداد الغداء، في حجرة الطبخ التي تقع في فناء الدار. وسألت العجوز نفيسة عن الطفل أخيها:

– «إني لا أرى عبد القادر يا نفيسة، أين ذهب؟»

– «تسوق مع أبي».

سؤال العجوز عن أخيها الصغير أثار في نفسها أفكاراً لا تفتأ تتردد على نفسها منذ أن جاءت من الجزائر، وأُلزمت بعدم الخروج من البيت:

– «كأن المرأة مخلوق شاذ يجب ألاَّ يعامل معاملة الأسوياء... الخروج عيب... الضحك عيب... الحديث أمام الرجال عيب... التجمل عيب... عدم القيام بكرة، عدم الصلاة، عدم إتقان أعمال بدائية منزلية عيب... عيب، كل شيء هنا عيب! قيمة المرأة ليس فيما تحسن أو تعمل، ألسنة الناس فيها حسبما اتفق، هي ميزانها...»

تنهدت بأسى مما جرى في نفسها من أفكار، بالرغم من أنها لا تحب أن تظهر أمام العجوز إلا في صورة الفتاة المرحة التي لا تعرف من الحياة إلا الجوانب السارة البسيطة. ولكن العجوز لم يخف عليها ما يبدو على وجه نفيسة من وجوم فسألتها بلطف:

– «مالك يا نفيسة؟ كأن شيئاً ما يحزنك... ألست سعيدة بين أبويك؟»

فأجابت نفيسة بابتسام:

– «لا شيء يا خالة... إنني أغار من عبد القادر!»

– «تغارين من عبد القادر الطفل! ولماذا؟»

– «لأنه يستطيع الذهاب إلى السوق أو الخروج إلى حيث أراد. أما أنا فمنذ جئت من الجزائر وأنا سجينة!»

– «لكن أنت امرأة، وخروج من في سنك لا يسلم عرضه من ألسنة السوء».

– «ألسنة السوء... إن الدنيا تبدلت يا خالة، تبدلت. إن جهل الرجال هو الذي أطلق ألسنتهم بالسوء فينا. وإن جهل المرأة هو الذي يجعلها تحيا بين عبودية الآباء والأزواج...»

كانت تتحدث إلى العجوز وعضلات وجهها تنقبض وتنطلق مما زاده حيوية وسحراً. ولاحظت العجوز لأول مرة أنها أمام امرأة لا تعرف مثيلاً لها في هذه القرية. امرأة قد تكون عاشت تجارب عديدة ولو أنها تحاول الظهور في أغلب الأحيان بمظهر الفتاة البريئة! كما لاحظت حسنها البادي في كل جزء من ملامح وجهها. فها هي ترى خطوطاً رقيقة متوازية ترتسم فجأة على جبين نفيسة، تعبر عن حزن لا تصوره الكلمات. وها هي ذي ترى خطاً عمودياً يرتسم بين حاجبيها في استقامة، يؤيد استقامة حجتها. وها هي ترى على شفتيها الرقيقتين شيئاً ساحراً يملأ النفس غبطة وعطفاً على صاحبته وهي تتحدث. ثم ذلك الثغر الفاتن لا نشوز لأسنانه ولا انفراج بينها. بياضه الناصع يحدث ببلاغة على أن كبر السن ليس أمراً محزناً فقط... ثم هذان الهدبان الطويلان اللذان يعطيان للنظرات عمقاً وجمالاً. ثم هذان الحاجبان الغريبان!... ليس هناك فتاة فيمن تعرف لها حاجبان كثيف شعرهما بهذه الصورة! ومع ذلك فهما في هذا الوجه نموذج فذ للجمال! وحركات يديها وهي تتكلم... ما أشد تعبيرها وانسجامها مع الكلام! وهذه الخصلة الكثيفة الناعمة المرسلة على الجهة اليسرى من الصدر، حيث تتقوس قليلاً ثم تنزل إلى الحزام الأبيض اللامع الجميل! وهذا الفستان الحريري الأزرق ذو الأزهار اللوزية الزاهرة!...

–«آه! لو أستطيع أن أصنع آنية واحدة توحي لناظرها بما توحي به هذه الفتاة!... لكنت إذن أسعد امرأة!...»

وواصلت نفيسة حديثها، وكانت تودّ لو استطاعت أن تمسك عن إثارة موضوع مع عجوز جاوزت الستين، موضوع لا موضوع له ولا داعي للحديث فيه... ولكنها كانت تحس بقوة خفية تدفعها للكلام دفعاً:

– «إن أمي تمنعني من الخروج هنا.. في هذه القرية الخالية! بينما في الجزائر حيث في كل خطوة رجل أخرج دون أن ينكر عليّ أحد ذلك. فلماذا الخروج هنا عيب وهناك لا؟ أهنا مسلمون وهناك ملحدون؟ أم أن المرأة تتبدل حقيقتها من مكان إلى مكان؟»

ربتت العجوز على كتف نفيسة وقالت لها في حنو:

– «كل بلد له مقاييسه يا نفيسة! هل قريتنا ومدينة الجزائر متساويتان في كل شيء؟ وهناك النور والدور والسيارات والجنات... وهنا يا بنيتي إن خرجت ماذا ترين؟ هنا لا شيء: أكواخ وجبال وليل ونهار. الرجال هنا كالوحوش يلتهمونك بأعينهم إن رأوك. فهم لا يرون مثلك في بيوتهم ولا في غدوهم ورواحهم».

سكتت نفيسة وأومأت برأسها مصدقة كلام العجوز وأدركت أنها أمام امرأة لم تمنعها بداوتها من النفاذ إلى حقائق قد لا تخطر على البال.

أما العجوز فأحست أنها تكتشف هذه الفتاة لأول مرة. وشعرت أن قبولها الزواج من مالك ليس يسيراً كما كانت تفكر، بل سيكون من أعسر العسر. وخصوصاً أن مالكاً شديد الحساسية، وشديد الذكاء أيضاً...

وكانت خيرة في هذه اللحظة داخلة تحمل بين يديها قصعة من طين، وقالت بابتسام تخاطب العجوز:

– «لست أدري أيعجبكم ما أعددته من أكل أم لا؟»

فأجابت العجوز:

– «وإذا لم يعجبنا طعامك فأي طعام يعجبنا إذن؟»

– «أعددت «الفطير وقسول» (رقاق يطبخ في مرق الطماطم والبصل)».

وأخذن يأكلن، وكان الطعام لذيذاً حقاً ومناسباً لحرارة الطقس التي كانت تستعر استعاراً في ذلك اليوم.

الفصل الثاني

أصبحت القرية نشيطة حافلة، بالرغم من الحرّ، تستعد لتحيا يوماً قلما شهدت مثله. فستستقبل بعد قليل مالكاً شيخ البلدية. ومسؤول الحزب للناحية وبعض الشخصيات المدعوة من القرى المجاورة، لحضور تدشين مقبرة لأبنائها الشهداء الذين سقطوا أيام حرب التحرير.

وكان أحد سكان القرية عندما عُيّن كاتباً للبلدية وارتحل إلى القرية المركزية للاستقرار بها نهائياً، وهب للقرية قطعة من أرض لبناء مدرسة، ذات موقع ممتاز، نظراً لقربها من الماء ومن الطريق ومن الدشرة. لكن حياة السكان القروية وظروف معاشهم التي تستلزم تربية بعض المواشي، حالت بينهم وبين الاتفاق على بناء المدرسة. فالكل يودّ أن تكون في مكان يقرب من سكناه... وهكذا قرروا في النهاية أن يجعلوا من المكان الموهوب مثوى أخيراً لرفات شهداء القرية.

طبعاً قبل أن يصلوا إلى هذا اليوم المشهود وقعت بينهم مشادات عنيفة كادت تؤدي بالقرية إلى حرب أهلية. وكان السبب هو أن أحد الذين شاركوا في حرب التحرير مشاركة فعلية أراد أن يضم رفات أخيه الذي قتل أثناء الثورة لسبب لا يتصل بحرب التحرير، إلى رفات الشهداء. فاحتج ذوو هؤلاء احتجاجاً عنيفاً أن يروا رفات قتيل ينضم إلى رفات شهداء ضحوا بأرواحهم من أجل الوطن... لكن في النهاية استطاع بعض أعيانهم أن يحسموا النزاع متذرعين أن القتيل لم يكن خائناً. وأنه لو لم يقتل في السنوات الأولى للثورة لكان من غير المستبعد أن يستشهد بعد... فالقرية أضاعت الكثير من رجالها في السنوات الأخيرة لحرب التحرير. وهكذا أُطفِئت نار التشاحن وسمح بدفن رفات القتيل مع الشهداء، على أن لَا يكتب اسمه على لوحة قبره!

فهذه المقبرة التي كاد إنشاؤها أن يؤدي إلى حرب بين السكان هي محل هذا النشاط الذي تشهده القرية اليوم، فسوف تدشن بعد وصول المدعوين والمسؤولين. ومن يدري قد تكون هذه المقبرة التي ترمز إلى التضحية من أجل الحياة الحرة بداية لاتفاقات أخرى بين السكان فَيَعُون واقعهم وحياتهم ويستبدلونهما بواقع أفضل وحياة أليق... على أنّ الحقيقة هي أن القرية فقيرة سواء اتفق السكان أو اختلفوا، وأنها منعزلة عن كل شيء سواء تفرقت بيوتها هنا وهناك أو اجتمعت. ثم هناك ميزة أخرى لها وهي أن معظم شبابها يعملون في فرنسا. أما مثقفوها فلا يكادون يَعْدون أصابع اليد. وهم بحكم عملهم لا يعيشون في القرية ما عدا مالكاً شيخ البلدية الذي بقي على اتصال بالسكان لأن مقرّه بالقرية المركزية حيث كل سكّان القرى المجاورة يذهبون في أغراضهم التجارية والإدارية والعدلية أيضاً... يُمَكِّنه من رؤية أغلب السكان، مرة في الأسبوع على الأقل. ووظيفته كشيخ بلدية تجعله أحب أم لم يحب على علم بكل ما يجري في قرى الناحية، وخاصةً هذه القرية التي رأى أول نور على ترابها.

لا داعي أن نطيل الحديث الآن عن القرية فالمهم هو أن أخبارها تجتمع في المقهى ككل القرى المجاورة.

وهناك قال شاب عاد منذ أيام من فرنسا لقضاء عطلته، قال لشخص مسن كان بجانبه:

– «رابح هو الشخص الوحيد الذي لا يهمه كثيراً ما يجري في القرية سواء في هذا اليوم أو في غيره من الأيام!»

وكانت حينئذ تنطلق من إحدى الربى المقابلة للقرية أنغام ناي صافية كالنور. فكان العازف هو رابح راعي الغنم! لا أحد يدري كيف كانت تبدو هذه القرية القفراء لزائريها لو لم يكن فيها هذا الراعي الطيب الذي يملأ سماءها أنغاماً! كم هي جميلة هاته الأنغام! لكأنها خُلِقَتْ لتبرر الصمت الحزين الذي يخيم على القرية، أو أنها عذر لما يبدو عليها من فقر! إنها بصفائها وعذوبتها تجعل فراغ القرية أجمل مما أبدعه العمران!

– «رابح لا يهمه ما يجري في القرية...»

وكيف تهمه حياة الناس وأيامه هو تمضي مع الأغنام بين التلال والمروج؟

مرت لحظات صمت قبل أن يجيب الرجلُ المسنُّ، الشابَ العائد من فرنسا ثم قال:

– «أتريد أن يترك الغنم ويلتحق هنا بهؤلاء الذين تركوا أعمالهم وأتوا لتعمير المقهي».

فأجاب الشاب:

– «لكن هذا اليوم يختلف عن بقية الأيام. فالقرية لا تحتفل كل يوم بشهدائنا».

فكر الشيخ هنيهة ثم قال:

– «ومن يرعى الغنم مكانه؟ هل الغنم تصوم اليوم لأن القرية في احتفال؟»

فقال الشاب:

– «لا أقصد هذا يا عم».

فقال الشيخ:

– «إن الناس هنا منذ الاستقلال لم يعد يروقهم أي عمل. كل واحد صار ينتظر أن يمنح شهرية مقابل ما عمله أو ما لم يعمله أثناء الثورة... ولولاكم يا بني، أنتم الذين تحيون في الغربة، لولا ما ترسلونه من حوالات لما بقيت في هذه الناحية دار قائمة! إن الناس هنا، كما قلت لك، كرهوا العمل... كرهوا الأرض ومن يكره الأرض ترجعه إلى بطنها».

فقال الشاب في شيء من الامتعاض:

– «ولكن هذه الأرض يا عم لا تصلح لأي فلاحة، تخدمها سنة فإذا ما تفيء به لا يكفي لنفقة شهر».

فردّ الشيخ بتنهد قائلاً:

– «أنت لا تعرفها يا بني، ولا تعرف الفلاحة... إن أرضنا ليست ككل الأراضي لا تعطي دفعة واحدة، ولكن الذي يعرف كيف يراودها تمنحه من نفسها ما لا يماثله لذة ما تمنحه سهول «متيجة». هنا نستطيع أن نجد اللبن قليلاً ولكنه لذيذ، والعسل... هل هناك نحلة تنتج عسلاً مثل عسل نحلنا؟ واللحم هنا... أي لحم ألذ منه؟



والقمح... والخضر... والبيض... ماذا تريد أن تغل الأرض أكثر من هذا؟ صحيح أنها تعطي بشحٍّ ولكن تعطي الجيد. والجيد قليله يكفي يا بني».
سكت الشاب فهو كان في واد والشيخ في آخر...كان الشاب يفكر في حياة أخرى غير التي عرفتها القرية... حياة تقوم على العجلة والمحرك، لا على الأقدام والفأس. كان يفكر في السيطرة على الأرض، في استغلالها بلا شفقة، في جعلها أرضاً مطواعاً لا تئن ولا تشكو... وكان الشيخ يفكر فيها كما يفكر آباؤه وأجداده منذ آلاف السنين... يفكر في الرفق بها، في العناية بكل ما ينقصها، في مساعدتها أيام الجفاف وأيام الفيضان، في راحتها اذا تعبت من الحمل والولادة المتعاقبة. كان يفكر في حبها... لأنه يحبُّها.
وبينما هما في صمتهما، إذا بصوت لاعب يصيح داخل المقهى قائلاً:
– «أرشم مشوي!»
فأجاب صوت آخر بأعنف من الأول:
– «مشوي في القمر!... هات ثلاثة!»
وقال الثالث:
– «أربعة! ثلاث ابنات وميسّة: عرس وخياطة بيت!»
سأل الشاب الشيخ:
– «هل تحسن لعب الورق يا عم؟»
– «أحسن اللعب يا بني ولكني لا ألعب...»
صمت قليلاً ثم استأنف قائلاً:
– «تبدلت لغة اللعب!... كانت لغتنا غير هذه. كنا نسمي القراط «قراط» والسوطة «سوطة». أما الآن جدت لغة أخرى... مع من ألعب؟»
فقال الشاب بابتسام:
– «لا شك أن القرية تعد «المشوي» لزائريها اليوم!»
فأجاب الشيخ:
– «ما دامت رائحته وصلت إلى أنوف اللاعبين فهل بعد ذلك من تأكيد آخر؟»
فقال الشاب:
– «كلمة لم أفهمها يا عم: ما يقصد اللاعب الذي قال: عرس وخياطة بيت؟»
فأجاب الشيخ:
– «عرس وخياطة بيت» مثل له نفس المعنى الذي للمثل الآخر الذي يقول: «ضرب عصفورين بحجرة»! وأظن أن اللاعب يقصد به، فوق نيله الأرقام على الأوراق فكان هو الأخير ولم تبق ورقة في الأرض فنال رقماً آخر على ذلك. وفي الحقيقة هو لا يتحدث عن اللعب فقط، بل يرمز إلى إشاعة تجري في القرية منذ أيام. وهي أن مالكاً شيخ البلدية خطب نفيسة بنت عابد بن القاضي واللاعب يشير إلى أن ابن القاضي الذي يعد الغداء لضيوف القرية اليوم غايته تزويج ابنته من شيخ البلدية».
فقال الشاب:
– «قلت إنك لا تفهم لغة لاعبي اليوم... وها أنك تجيدها!...»
فرد الشيخ:
– «أتظن أني أجيدها، لا يا بني، قال أحدهم: «مشوي في القمر! ما معنى هذا؟ لست أدري... تبدلت اللغة!»
من بين دور القرية التي أصبحت تمتلئ نشاطاً واحتفالاً في ذلك اليوم دار عابد بن القاضي. فكثير ممن لهم صلة بها من أقارب وفلاحين أصبحوا غادين رائحين حولها. فهي التي ستستقبل ضيوف القرية بعد إتمام تدشين المقبرة. وليس الضيوف وحدهم الذين سيتناولون الطعام فيها، بل كل السكان الحاضرين سواء دُعُوا للغداء أم لا، فالعادة هي العادة. وعابد بن القاضي يدرك ذلك ويدرك أيضاً أن الهيبة التي يحيطه بها السكان مناطها الحقيقي ليس الرجل ولكن الطعام. لكن غايته اليوم تتجاوز كسب احترام السكان وتتعدى تدشين المقبرة، فهو يرمي إلى التأثير على مالك شيخ البلدية، هذا الرجل العدو الصديق، الصامت الساخط، اللين العنيف... طبعاً لم تكن عداوتهما صريحة بينهما ولا معروفة لدى الناس. فهما إذا التقيا لا يبدو عليهما ما يوحي بعداوة، لكن كل واحد منهما يحس بعدم ارتياح إذا وجد نفسه أمام الآخر. كان كلاهما ذكياً صعب المراس بيد أن عابد بن القاضي بعد الاستقلال صار أقرب إلى اللين والطريق الملتوية منه إلى الطريق المباشر والعنف. وأكثر تودداً إلى مالك وتقرباً منه. يفتعل المناسبات للتعظيم من شأنه وذكر كفاحه وإخلاصه للثورة والوطن. وكان إذا ذكر خصاله لا يذكرها إلا في غيابه فهو يدْرك أن الناس ينقلون إلى مالك كل ما يسمعون... باختصار لم تكن عداوتهما هجوماً بل كانت تربصاً وانتظاراً. لكن عداوة مالك لابن القاضي لم تكن عاطفية شخصية بقدر ما كانت مذهبية فهو بحكم حياته الثورية الطويلة لا يطمئن لذوي النعمة والمال مهما كانت المشاعر التي تملأ وجدانهم بينما عداوة ابن القاضي لمالك كانت شخصية منشؤها الخوف... الخوف من الماضي ومن المستقبل. بالنسبة للماضي هناك نقطة سوداء في حياته لا يعرفها إلا مالك، وبالنسبة للمستقبل هناك أملاكه التي تملأ القلوب حسداً. فإذا تقرر إصلاح أراضي الناحية فإن أرضه لن تبقى ملكاً له. ومالك كشيخ بلدية ومناضل مثقف لن ينسى له ماضي ولا حاضره. فالوسيلة إذن هي التقرب إليه وكسب عونه ولن يتيسر ذلك بدون رابطة متينة تربط بينهما. وهذه الرابطة اكتشفها عابد بن القاضي عندما عادت نفيسة من الجزائر، فتاة جاوزت سن البلوغ بسنوات فكانت هي الحل... «الأبناء هم الحل» هذه الجملة قالها ذات يوم من أيام الثورة للمسؤول السياسي الذي كان يتهمه بالتعاون مع فرنسا في دخيلة نفسه، ولكنه كانت تنقصه الحجج الكافية فأراد أثناء حديث معه أن يستدرجه فقال:
– «أرأيت، لقد قتلت فرنسا هذا الأسبوع معظم شباب القرية!»
فأجاب عابد بن القاضي:
– «الأبناء هم الحل!»
فأنجته هذه الجملة، وظن المسؤول السياسي أن الرجل واع للثورة بكل أبعادها فإذا رضي الآباء بموت أبنائهم من أجل الوطن فمعنى ذلك أن انتصار الثورة حتمي!
قد تكون فلسفة الرجل صحيحة إلى حد ما حتى فيما لا يتصل بالثورة... فالأبناء هم الحل أيضاً بالنسبة لمشكلة الموت... ولكن هل كان يفكر فعلاً يوم أن قال كلمته فيما تؤدي إليه من حلول؟ إن الحل القريب الذي يفكر فيه يتعلق بمأزق معين: بأرض لا يود أبداً أن يراها تخرج من حيازته وبسمعة لا يرضى أبداً أن يلحقها الزيف. هو إذن يبحث عن حلول مؤقتة، وهكذا شأنه دائماً. والحلول المؤقتة لا عيب فيها سوى أنها مؤقتة...
لكن ما أغرب من الحلول المؤقتة تشابه القصة. فالأشخاص هم دائماً عابد بن القاضي من جهة ومالك شيخ البلدية من جهة أخرى والزواج الذي يمثل الموضوع، ثم المصلحة التي تمثل فلسفة كل قصة يشارك فيها عابد بن القاضي!
أثناء الثورة كان حبك قصة ولعب دوراً أساسياً فيها، وكانت غايته: الحفاظ على نفسه وماله، والحفاظ على سمعته تجاه الثورة وتجاه الاستعمار.
كان مالك عندئذ في شبابه الأول، ولكن الناس كانوا يخشونه. فهو أول رجل في القرية حمل السلاح والتحق بصفوف المجاهدين. لم يحمله اضطراراً ولا عن جهل، كان يعي معنى الثورة ضد استعمار سيطر على أرض عشرات وعشرات السنين، وكان عابد بن القاضي يدرك الخطر الذي يمثله مالك بالنسبة إليه فحاول ما وسعته المحاولة أن يوقع به ولكن مالكا كان ثائراً يقظاً يعرف مواطئ قدميه.
وذات يوم قرر مسؤولو الناحية العسكريون والسياسيون فرض غرامات على بعض السكان الذين بقي أمرهم غامضاً بالنسبة للثورة، من بينهم عابد بن القاضي وكُلِّفَ مالك بتنفيذ القرار.
ولما اتصل بعابد بن القاضي قال له هذا:
– «خمسمائة ألف قليلة في سبيل الثورة ولكن جمعها بالنسبة إليّ عسير! يجب أن أبيع غنمي لدفعها، وهي تهون مهما عزّت ولكن أخشى ما أخشاه، أن تطلع السلطة الحاكمة على الأمر فتذهب الغنم وأذهب أنا، ولن تنال الثورة من ذلك أي كسب».
فأجابه مالك:
– «ولو فرضت عليك هذه «السلطة الحاكمة» التي ذكرت دفع هذا المبلغ ماذا سيكون موقفك؟ أتقول لهم: «أخشى أن تذهب الغنم وأذهب أنا ولن تنالوا من ذلك شيئاً؟...»
وأمام المأزق الذي وجد فيه نفسه بدت له فكرة مصاهرة مالك... وكانت زليخة حينئذ بلغت سنّ الزواج. فتاة جميلة لونها يشبه القمح! كانت تقرأ وعادت إلى القرية لقضاء العطلة الصيفية، مثل نفيسة... فقال لمالك:
– «ما تراه الثورة هو الخير. قلت لك ما قلت باعتبار أنك أدرى الناس بوضعنا، لا تخلصاً من الواجب. على أية حال لنذهب الآن إلى الدار لتناول الغداء ولن يكون إلا ما يرضي...»
فامتنع مالك ولكن ابن القاضي أقسم بطلاق زوجته... فقبل مالك الدعوة على مضض.
وأمام باب الدار الخارجي توقف مالك ولكن ابن القاضي أقسم له أن يدخل معه إلى حجرة العائلة قائلاً:
– «إنك لست أجنبياً يا مالك. فأنا لا أرى فرقاً بينك وبين أي أحد من أبنائي. آه يا ولدي، لم تعرف ما كان بيني وبين المرحوم والدك من صداقة!...»
وفعلاً كان بينه وبين والد مالك صداقة متينة ولكن الثورة خلقت بين الناس صداقة من نوع جديد. ولو بقي والد مالك حياً لكانت صداقة الرجلين ربما تعرضت لإحدى هزات الثورة وتصدعت...
دخل مالك إلى الحجرة العائلية في لباسه العسكري فاستقبلته خيرة استقبالاً حسناً وقدمت له بنتها زليخة وقالت:
– «هذه زليخة ابنتي التي تقرأ في الجزائر، أنت لا تعرفها يا مالك!»
فتصافح الفتيان. وكانت نفيسة حينئذ في حوالي الثامنة عشرة من العمر تقيم بالجزائر لدى خالتها. ولاحظ مالك ما تتحلى به زليخة من جمال وحيوية، ولاحظت هي ما يبدو على مالك من فتوة وذكاء. ولاحظ ابن القاضي ما يجري بينهما من تبادل نظرات مغتبطة فسر غاية السرور. وأدرك أن حيلته نجحت جزئياً.
وبعد تناول الغداء قال ابن القاضي مخاطباً زوجه:
– «مالك كُلِّف من طرف الثورة ليأخذ منا مبلغاً من المال إعانة. والواجب يقتضينا أن نعين الثورة مهما كان الحال. لكن المبلغ المطلوب لا أحصل عليه إلا ببيع الغنم... ما رأيك أنت في الموضوع؟»
فأجابت خيرة بصدق:
– «إن رأيت أن مصوغاتي تكفي لتسديد المبلغ المطلوب فبعها. أما إذا بعنا الغنم فلم يعد لبقائنا هنا أي مبرّر».
بدا لابن القاضي أن يقحم مالكاً في الموضوع ويستشيره كما لو أنه فرد من أفراد العائلة ولكنه انتبه لسوء عاقبة هذه الخاطرة. وفكر أن الأحسن التريث وعدم إحراج مالك. وقال:
– «على كل حال. سأفكر في الموضوع ولن يكون بحول الله إلا الخير».
خرج الرجلان واتفقا على أن يلتقيا في الغد. وقال ابن القاضي وهو يودع مالكاً:
– «ربما سأجد من أين أقترض المبلغ، على كل عُدْ غداً لأخذ الثمن. إياك أن تخبر أحداً، كن حذراً فعيون الاستعمار تتربص بنا الدوائر».
وبالرغم من أن مالكاً لم يكن مرتاحاً كل الارتياح لهذا التزلف الذي أبداه له ابن القاضي إلاّ أن نظرات زليخة وحركاتها وسلوكها حياله بالجملة لم يكن فيه زيف ولا تكلف. بل كان يتسم بالعفوية والصدق. وأحس وهي تنظر إليه، أنها تكنُّ له الكثير من الإعجاب!
دفع ابن القاضي الغرامة المفروضة عليه في الموعد المحدد، وأبدى لمالك رضاءه بالقيام بهذا الواجب ومساهمته في الثورة. وكانت تلك نقطة البداية لما جد بينهما من علاقات في المستقبل...
وهكذا أشاع ابن القاضي في ذلك الحين بين الناس أن ابنته زليخة مخطوبة من طرف مالك. وذات يوم وجد مالك نفسه في دار ابن القاضي مع بعض رفاقه المجاهدين طالباً يد زليخة!...

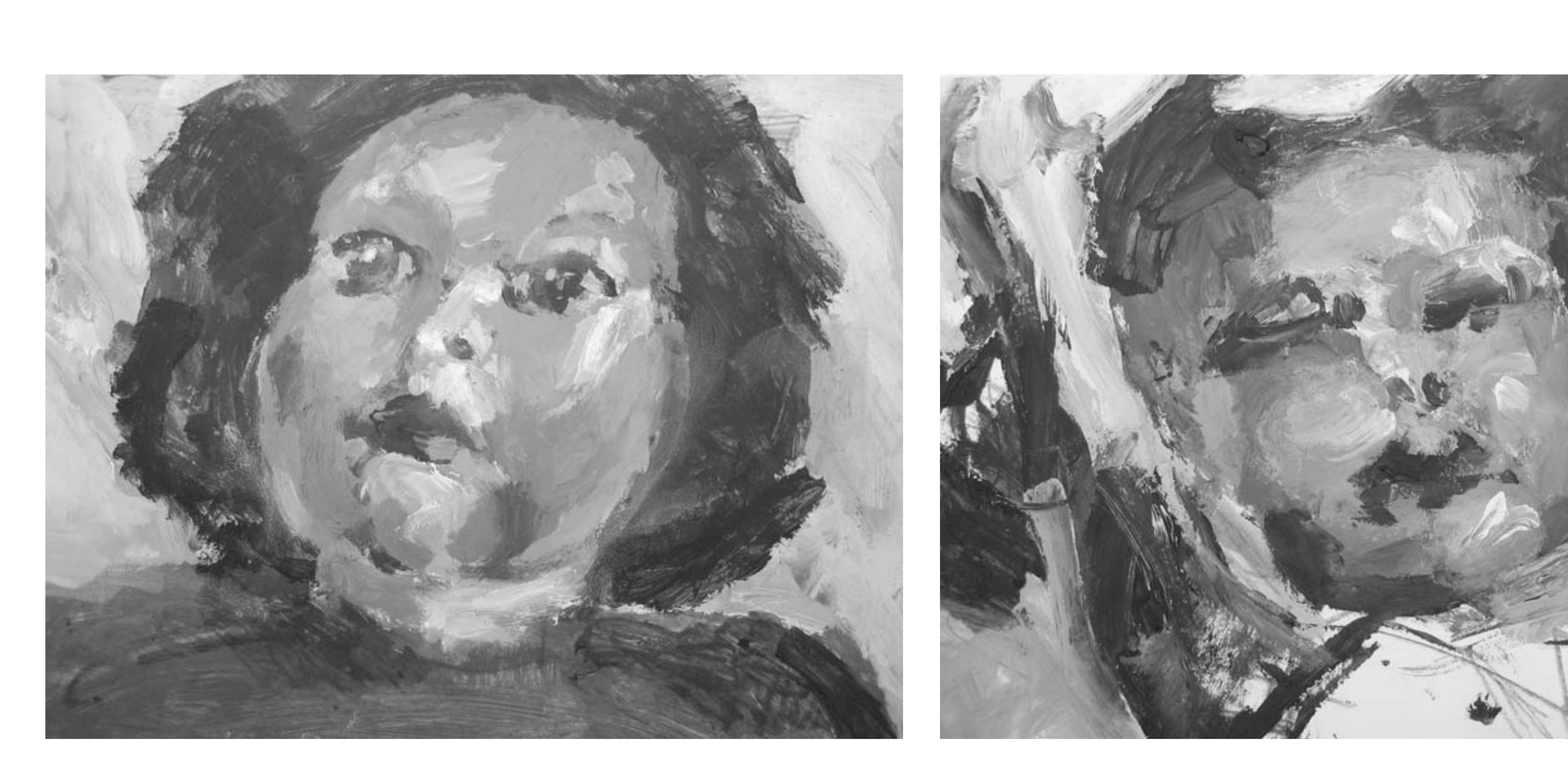
لم تكن ظروف الثورة في ذلك الحين تسمح لمالك بإمضاء العقد، ولا مكنته من الاتصال المتعاقب بخطيبته. لكن المرات القليلة التي تلاقيا فيها كانت كافية لأن تضمن لكليهما حب الآخر وإخلاصه. وعمقت من ذلك الحب المراسلة التي جرت بينهما طوال سنة. حيث كانت زليخة بالجزائر لإتمام دراستها وكان هو في حياته الجهادية التي أضفى عليها الحب نوعاً من الرومانطيقية الشعرية فإذا الحرية والوطن والمستقبل تمتزج بحب تلك الخطيبة الجميلة، ويتكون من كل ذلك لدى الشاب مثل أعلى فريد!
وفي صيف سنة 57 جاء مالك مع بعض رفاقه إلى القرية في مهمة وإذا به يعلم هناك أن خطيبته قادمة من الجزائر في الغد! وكان هو اليوم المحدد لتنفيذ المهمة التي جاء من أجلها.
إن الأقدار أو الصدفة أو هذه القوة الخفية التي توجه الناس والأشياء لها منطقها الذي قلما يتلاءم مع منطق العقل! كانت المهمة تتمثل في وضع لغم مؤقت بأحد جسور السكة الحديدية حيث كان من المقرر أن يمرّ قطار عسكري مشحون بالمعدات الحربية والجنود. في الساعة 11 صباحاً وكان وقت قطار المسافرين اليومي الذي يربط بين الجزائر وقسنطينة يمر عادة من هناك عند الساعة الواحدة بعد الظهر. ذهب مالك ورفاقه للقيام بمهمتهم. وكان المكان المعين يبعد عن القرية حوالي خمسة عشر كيلومتراً. فوضعوا اللغم وضعاً محكماً. وكانت الساعة حينئذ الحادية عشرة إلاّ ربعاً، ولما انتهوا من مهمتهم ابتعدوا عن طريق السكة الحديدية إلى مكان محدد سلفاً لمراقبة الانفجار. وحلّت الساعة الحادية عشرة، وبدل أن يمرّ القطار العسكري إذا بقطار المسافرين يقبل من بعيد، يشق الأرض شقاً في شخير وسخط ويأس... وكان اللغم ينتظر في صمته الثائر... ينتظر أي قطار ليجعل منه أكواماً من قصدير وحديد. كل ما شاهده مالك أثناء الثورة لم يكن شيئاً بالنسبة لتلك اللحظة المريعة التي رأى فيها الحديد والبشر تتطاير إلى حتف رهيب! ووقعت المأساة التي أزالت منذ ذلك اليوم بسمة السرور عن شفتي مالك، ومحت من عينيه ذلك النور الحالم إلى الأبد.
وكانت زليخة تلك الفتاة التي تشبه القمح من بين القتلى!
لم تعرف تلك الناحية مأساة طوال أيام الثورة تشبه تلك المأساة! وكان هذا الحادث نقطة تحول في حياة السكان وحياة جيش التحرير، وبداية التقتيل الجماعي والهدم العام من طرف الاحتلال.
لكن عابد بن القاضي الذي كان يعلم بمجيء «فرقة الكمندو» إلى القرية مع صهره مالك، فضل أن ينتقم بنفسه لابنته ومن معها من القتلى، أن ينتقم بطريقته الخاصة.. وهكذا بمجرد أن علم بالحادث الأليم خف لإعلام معسكر الاحتلال بالفرقة المتسببة في الحادث، وأعطى كل التفاصيل التي وصلت إلى علمه بخصوص تنقلات جيش التحرير في الناحية وفي الغد أصبحت القرى مطوقة، وأصبحت القرية التي ستحتفل بعد قليل بتدشين مقبرة شهدائها، مرمى لقنابل «النابالم» و«الروكيت» والدمار! إن المحن مهما كانت قاسية، هناك من لا يتعلمون منها أي درس. وعابد بن القاضي من هذا النوع. فلم يتسبب في جعل القرية التي ينتمي إليها خراباً فقط بل

حتى القرى المجاورة. ولكن تعاونه مع الاحتلال وخيانته للثورة لم تق بيته من قنابل طائرات الخراب.
كان مالك بعد وقوع الحادث متأكداً من أن السلطة الاستعمارية ستنتقم أبشع انتقام ولكن لم يكن يدري أن تكون هذه القرية هي محل سخطها، فليس هناك ما يجعلها قبل غيرها أقرب إلى التهمة. ولما جاءت الطائرات في ذلك الصباح كان مالك في دار ابن القاضي هو وحماته والطفل حسين الذين كان حينئذ في سنّ الثانية عشرة، أما ابن القاضي فلم يكن هناك، كان بكَّرَ إلى القرية المركزية لإتمام الإجراءات المتعلقة بنقل جثة ابنته زليخة.
شهدت القرية في ذلك اليوم قيام قيامتها... وهكذا قتل الطفل حسين ودمرت دار ابن القاضي وجُرح مالك الذي كان يحاول إنقاذ الطفل جرحاً بليغاً، أبقاه تحت العلاج ستة أشهر كاملة، منها ثلاثة في بيت العجوز رحمة صانعة الفخار.
لم يعلم أحد بأن ابن القاضي هو الذي كان سبباً في خراب القرية ما عدا مالكاً الذي استطاع فيما بعد أن يتعرف على الحقيقة تعرفاً يؤيده الحدس أكثر من الحجة.
الطريقة إذن لم تتغير، طريقة عابد بن القاضي في درء ما يتوقع من خطر قريب أو بعيد. والقصة كذلك لم تتغير، ولو أن الزمان تغير، ولو أن بعض الممثلين قد تغيروا، وفلسفة القصة في النهاية هي هي... فلسفة نفعية. فبالأمس البعيد أشاع وأذاع أن مالكاً خطب زليخة حتى خطبها فعلاً وانتهت المصاهرة بمأساة امّحت آثارها ولم تمّح ذكرياتها، كما لم تمّح أحزانها من بعض القلوب. وها هي اليوم تأخذ الإشاعات طريقها إلى الآذان فتنزل إلى الألسنة لتخرج منها مضخمة مفصلة تفصيلاً يصل أحياناً إلى إزالة كل لبس دقيق. هل خطب مالك نفيسة؟ أم أن ابن القاضي أشاع هذه الخطبة لتعمل عملها في نفس مالك فتحثه للإقدام على الفكرة؟
مهما يكن من أمر فإن ابن القاضي اليوم مسرور، شديد النشاط لاستقبال ضيوفه وكل السكان. وسروره لا يبدو على وجهه فقط بل حتى على لسانه. قال مجيباً أحد أصدقائه الذي أبدى له إشفاقاً مما ستكلفه هذه الوليمة من نفقات:
– «وأي مناسبة أغلى من مناسبة الاحتفال بالشهداء؟ إن الثمن يهون أمام من ضحوا بالنفس. إنها فرصة العمر يا أخي. لتذبح اليوم كل غنمي، أليس للذبح خلقت؟»
كان يقول ذلك وهو يتفقد الخراف التي أعدت للشي. وكانت نفيسة أيضاً مسرورة بادية الانشراح، لأن الدار اليوم أعطتها الحركة التي تجري فيها صورة لم تعرفها لها من قبل. وفجأة نادى من بعيد أحد السكان:
– «يا سي عابد! يا سي عابد! إنهم وصلوا».
فانطلق عابد مسرعاً إلى القرية التي تبعد عن داره مئات الأمتار لاستقبال ضيوف القرية، وحضور التدشين.

بعد حفل التدشين المؤثر وما تخلله من كلمات ترحم وتمجيد للشهداء أخذ مالك يتجول بين صفوف القبور التي زادتها اللوحات التذكارية المنصوب عليها نوعاً من التساوي يثير الخشوع. وإذا به تستوقفه لوحة قبر مكتوب عليها: «هذا قبر الفتاة الشهيدة زليخة بنت القاضي، من ضحايا قطار 57!»، فأحس كأن شظية من زجاج تحركها يد خفية أخذت تنفذ ببطء إلى أعمق أعماق شعوره. وعادت إلى خياله الصورة المؤلمة التي تركها في ذاكرته انفجار القطار، عادت بعنف حتى لخُيِّل إليه أنه يراها بكل أجزائها الفظيعة مرتسمة على لوحة القبر أمامه! وتذكر جملة قالتها له زليخة ذات يوم: «الناس يتزوجون في السلم ونحن تزوجنا في الحرب. ترى أي مصير ينتظرنا؟» كانت في تلك اللحظات كل مشاعر مالك وأحاسيسه تبكي ألماً وحزناً وهو أمام القبر ولكن عينيه كانتا باهتتين منطفئتين كأنهما قطعتان من زجاج أسود لا يشع منهما إلا الظلام. وكان من بين الذين أتوا لحضور حفل التدشين معلم بالمدرسة الابتدائية في القرية المركزية بينه وبين مالك صداقة قديمة فلاحظ بطء هذا أمام القبر فالتحق به وقال له ساخراً:
– «دع الموت يبك ضحاياه، إن حاجة الأحياء إليك تفوق حاجة الأموات!»
فلم ينبس مالك بكلمة وعاد مع صديقه متعثراً بين القبور التي يثوي فيها أهم جزء من ماضيه.

قال أحد حفظة القرآن لمن معه وقد فرغوا من الأكل:
– «فإذا طعمتم فانتشروا».
فأكد الذي بجانبه قائلاً:
– «صدق الله العظيم!»
وإذا بشخص متكئ على وسادة في الجهة المقابلة استوى جالساً ونادى مخاطباً أحد الحاضرين:
– «يا عمي أحمد، ونحن ماذا نقول في مثل هذا المقام؟»
وكان المخاطب هو الشيخ المسنّ الذي كان أمام المقهى مع العامل الشاب الذي عاد من فرنسا. فردّ قائلاً:
– «لست أدري يا ولدي، تبدلتْ الأرطال!»
فقال الرجل:
– «أتريد أن أقول أنا؟ يقول المثل عندنا: إذا شبعت الكرش تقول للرأس غنّي لي!».
فأيد معظم الحاضرين قوله. وإذا بصاحب المزمار يخرج مزماره وصاحب الطبل يخرج طبله ويتحول الصمت النسبي إلى ضجة عارمة، يشارك فيها الطبل والمزمار بالجزء الأكبر وتشارك فيها الأرجل الراقصة والأيدي المصفقة بما بقي. فيخرج بعض من لا يطيقون الضجيج إلى رحاب الدار حيث الأشجار تمنح الظل والبرودة.
وأمام شجرة صفصاف كان يجلس مالك والمعلم صديقه. وكان المعلم أكره ما يكرهه صوت المزمار فقال:
– «لكأنه حمار ينهق! إن عقول هؤلاء كعقول الضفادع. فبدل أن ينصرفوا إلى شؤونهم ويدعوا غيرهم يستريح أخذت نقنقتهم الركيكة تملأ الجوّ ضجة!»
فلم يرد مالك عليه. وكان يبدو على ملامحه انقباض وأسى. فقال المعلم:
– «مالك اليوم؟ لكأن المقبرة أثرت فيك!»
نظر إليه مالك مليا ولكن ما كان يجري في نفسه لم يجد ألفاظاً ملائمة للخروج. فأضاف المعلم في مزحه:
– «إنهم موتى قدامى أولئك الذين دفنّاهم! أما الموتى الذين يحزن حالهم هم هؤلاء الذين يملأون البيت نواحاً بمزمارهم وطبلهم».
فرد مالك قائلاً:
– «أرى أن هذه الموسيقى لا تعجبك!»
فقال المعلم في حدّة:
– «أتسمي هذا الضجيج موسيقى؟»
فأجاب مالك في هدوء:
– «في آذان هواتها موسيقى يا صديقي».
فقال المعلم باستخفاف:
– «ونهيق الحمار أيضاً أغنية في أذني الأتان!»
سكت مالك هنيهة، ثم قال:
– «إنك تحرق حريراتك فيما لا يفيد».
فأجابه المعلم:
– «لماذا لا يروقك الهزل إلا عندما تراني جاداً؟»
فرد مالك بنفس اللهجة والهدوء:
– «جدك يبعث في النفس المرح أكثر من هزلك».
وكان حينئذ عابد بن القاضي مقبلاً نحوهما. وقبل أن يستجمع مالك أفكاره ويحاول استشفاف ما وراء ابتسامته، بادره هذا قائلاً:
– «أريد أن أكلمك يا سي مالك!»
والتفت إلى المعلم قائلاً:
– «أتسمح يا سي الطاهر؟ إنه لن يلبث طويلاً...»
فردّ المعلم:
– «تفضل، تفضل».
وأدرك مالك وهو يسمع «إنه لن يلبث طويلاً» أن الرجل لا يريد أن يكلمه وإنما يريد شيئاً آخر... يريد أن يعيد ربط ما بينهما من صلات مثلاً! وقف قليلاً متردداً، هل يقبل هذه الدعوة أم يرفضها؟ ثم رافق الرجل مفضلاً أن لا يعطي لهذه الدعوة أكثر مما تستحق من أهمية فيحرجه ويثير فضول المعلم في شيء قد لا يكون مطابقاً لحديثه. ولما ابتعد خطوات عن المعلم قال ابن القاضي:
– «إن العجوز ترجو أن تراك»
فلم يرد بشيء، وكان يحس بعدم ارتياح لهذه المقابلة التي ترغب فيها حماة قديمة، انقطعت بينه وبينها كل الصلات.
لكن المفاجأة التي كانت تنتظر مالكاً لا تتمثل في مقابلة الحماة ولكن في المكان الذي ستجري فيه، وفيمن يجدهم معها...

المكان الذي اقتيد إليه مالك لم يكن البيت الذي تجتمع فيه العائلة، فقد كان مكتظاً بالنساء والأطفال الذين لهم صلة ما بدار ابن القاضي، وإنما هو حجرة نفيسة! ومن كان ينتظره فيها هنّ خيرة والعجوز رحمة ونفيسة...
دخل مالك دون أن يبدو عليه أي تحرج أو اضطراب، ولكن ما أن وقع نظره على نفيسة حتى أحس كأن شيئاً انفتح فجأة في قلبه! فبهت لما يرى... إنها زليخة التي وقف منذ ساعات أمام قبرها أثناء التدشين تقف أمامه الآن حية!
طبعاً كانت لحظات الذهول قصيرة ولكن بالنسبة لمالك كانت لحظات نفسية لا تقاس بالزمن، لحظات ارتفعت فيها حجب النسيان وحجب الأيام فإذا الذكريات في نفسه كأنها أشعة! وإذا الصور يراها واضحة الأجزاء كأنها انطبعت في تلك اللحظة على نفسه! هل الصدف تسخر من الناس إلى هذا الحد، فتريهم من ضعفهم أبلغه عندما يظنون أنهم أشد ما يكونون مناعة وبعداً عن كل انفعال أو تأثر؟ أم الزمان هو الذي يسخر فيبرز ككل في لحظة لتصير كل الحسابات والتقديرات سخفاً وعبثاً؟ أم التعدد هو نفس الوحدة والأسماء مهما اختلفت فهي لمسمى واحد في نهاية التحليل؟
أفكار غامضة مضطربة تتزاحم في ذهن مالك. وهي كلها في النهاية ناتجة عن عاطفة ظنها ماتت منذ سنين فإذا هي تنهض حية كأشد ما تكون الحياة!
ولم يغب عن ابن القاضي ما اعترى مالك من ذهول وخطاب زوجه قائلاً:
– «ها هو ذا سي مالك الذي ما تنفكين تسألين عنه، كما لو أني حُلْتُ بينه وبين الدار!»
فقبلته بحنان وخاطبته معاتبة ودموعها تسيل:
– «ما ظننت أبداً أنك حقود إلى هذا الحدّ!»





فربت مالك على كتفها بحنان وعطف ولم يتفوه بكلمة. ثم قبل العجوز رحمة وسألها عن حالها:
– «كيف أنت والفخار يا خالة؟»
فقالت:
– «إنني صرت كالآلة القديمة المهشمة!»
والتفت إلى نفيسة فبادرت خيرة قائلة:
– «إنها نفيسة ابنتي التي تقرأ بالجزائر!»
وأمرتها:
– «صافحي سي مالك، إنه خطيب زليخة ألا تتذكرين؟»
فاحمر وجه الفتاة خجلاً ومدت يدها له في خشية فتصافحا وأومأ مالك برأسه محيياً إياها. لكن عابد بن القاضي لم يرقه ما فاهت به زوجه، إذ قالت لابنتها «إنه خطيب زليخة ألا تتذكرين...» فحاول أن يعطي محتوى لهذا اللقاء غير ما أدى إليه كلام زوجه وقال:
– «منذ أن كانت الدنيا كان الموت وكانت الحياة، فلو أوقف الناس قلوبهم عند موتاهم الأعزاء لتوقفت الحياة».
فتكلمت العجوز مؤيدة:
– «ذلك هو الصواب يا ولدي. للموت يوم وللحياة أيام!»
فسر ابن القاضي بقول العجوز وقال لها:
– «بارك الله فيك. لا زلت لنا أبداً سنداً ونصحاً!»
ثم التفت إلى مالك فدعاه للجلوس ودعا العجوز أيضاً، فجلس مالك على مقعد خشبي كان هناك وجلست العجوز رحمة على الأرض وكذلك خيرة، وجلس هو على السرير وبقيت نفيسة واقفة حائرة لا تدري ما تفعل مما هي فيه من خجل. فلاحظ أبوها حيرتها فقال:
– «وأنت مالك واقفة؟ اجلسي هنا». وأشار بيده إلى مكان إزائه، فجلست. وكان الجمع يشعرون بنوع من الحرج. فلم تجد الكلمات طريقها إلى الخروج بسهولة. وخاطب ابن القاضي زوجه قائلاً:
– «ألا نشرب قهوة!»
فقامت معتذرة وقالت:
– «يا للعار! كيف لا نشرب القهوة!»
وخرجت لتعد القهوة. وبقي الجميع صامتين، لكن العجوز لم يرقها ذلك فقالت:
– «تحدثوا، اضحكوا، إن الحديث يخفف الجو ويزيل الحواجز المصطنعة».
فرد ابن القاضي قائلاً:
– «ذلك هو الصواب. الكلام الطيب كالشجر الطيب!»
وكانت نفيسة ترفع بصرها بين الحين والآخر نحو مالك الذي كان ينظر إلى الأرض مجتهداً أن لا تنزلق منه أية نظرة نحوها. بالرغم من أنه كان يحس بوجودها أكثر مما ينبغي، ويجد لذلك لذة خفية لا تقدر. فالشبه بينها وبين زليخة كاد أن يكون كاملاً. وكان يقول في نفسه: «لو أن الزمان كالفيلم وأيامه كالمشاهد وأجريت عملية تركيب جديد، فأزيل اللغم من الجسر، وأزيل انقلاب القطار، وأزيلت قنبلة القرية وما تبعها من قنابل، وأزيلت كل السنوات التي مرت بعد ذلك حتى اللحظة التي دخلت فيها هذه الحجرة، لكانت هذه الآن زليخة بدل أن تكون نفيسة ولكنت الآن خطيبها الجندي الذي سمع بقدومها فجاء لرؤيتها... عملية «مونتاج» سينمائي تكفي لجعل الخيال واقعاً! لكن الواقع ليس فيلماً، هو شيء آخر... فلم أنظر إليها إذن. وهي بالنسبة إلي ليست خيالاً وليست واقعاً هي أغرب من الخيال وأغرب غرابة من الواقع. هي حزن استيقظ في نفسي وكان ينبغي أن يبقى نائماً. فَلِمَ أنظر إليها وهي ليست زليخة وأنا لست الجندي الشاب؟... أنظر الماضي بأية عين؟ هل عيناي هاتان تستطيعان رؤية الماضي. كما كانت تراه عيناي الماضيتان الصافيتان؟ كلا!... إن استطاعتا أن تريا ما كان فيه من دخان فلن تستطيعا أن تريا ما كان فيه من صفاء. فالغشاوة كثيفة وذلك الأفق بعيد. فلم أنظر إليها وهي فتاة وأنا... كيف أنا؟ من أنا؟.
أنا... نعم، شيخ بلدية، يدشن المقابر بدل المعامل! هذا هو أنا الحقيقي!»
فقالت العجوز تخاطب مالكاً:
– «أنت لا تعرف نفيسة يا مالك، أرأيت، إنها تشبه زليخة، كأنهما قطرتا ماء!؟»
فقال ابن القاضي مؤيداً:
– «صحيح، أنا أتخيلها أحياناً زليخة! وخصوصاً أننا لا نراها إلا لماماً».
تضايق الجو بنفيسة وهي تسمع الحديث عنها بحضورها. ولم يعجبها أن ترى نفسها لأصل آخر، لا تقوم بنفسها كحقيقة كاملة. ولكن ماذا عساها أن تفعل أو تقول؟ والعادة تقضي أن لا تتحدث الفتاة بحضور والدها. أما مالك فلم يكن يمثل بالنسبة إليها إلا ما يمثله رجل كان ذات يوم خطيب أخت لها. صحيح كانت بين الحين والآخر تنظر إليه ولكن الباعث كان فضولاً لا أكثر. إذ هي لم تلاحظ على ملامحه أي شيء يستوقف النظر. ثم هي بعد ذلك لا تعرفه، ولا تعرف عنه الكثير ولا القليل.
قالت العجوز وهي ترى مالكاً صامتاً كالواجم، لا ينظر إلى أحد:
– «الإنسان يجب أن يرى الحياة دائماً بعيون المستقبل لا بعيون الماضي».
فقال ابن القاضي مصدقاً:
– «صحيح، إن الإنسان مهما تقدم عمره فهو يشعر دائماً كأن الماضي ليلة من الليالي وحياته هي ما بقي».
فأجاب مالك:
– «ليس كل الناس...»
فقالت العجوز:
– «يجب أن يكون كل الناس كذلك، وإلا...»
سكتت لحظة ثم أضافت قائلة بنوع من الحزن:
– «وإلاّ ما معنى الحياة؟ إن الغد الذي أنتظره هو الذي يحرك رجلي اليوم. عندما أحفر الطين لا أفكر في الغد القريب ولكن في الغد البعيد، البعيد... لأن التراب يجب أن ييبس ثم يدق ثم يبل ثم يبنى أواني... ثم بعد ذلك يأتي صقلها، ثم تبقى أياماً لتيبس ثم ترقم وتزخرف ثم توضع في الفرن... وليست العمل ينتهي هنا! لأن الفرن يعطي لها أحياناً ألواناً وأشكالاً غير التي كنت أنتظرها، وحينئذ أجد نفسي مضطرة للإعادة. وهكذا أبداً وأعيد أبداً، وأنا سعيدة بذلك لأن نفسي تحدّثني أنه لا بد أن يأتي اليوم الذي أصل فيه إلى الإتقان الذي أنشده وأجد الصورة المثلى التي أبحث عنها».
لم تعط كلمات العجوز للجو السائد حيوية فقط بل أثارت الإعجاب وأثارت بعد الإعجاب الأمل في القلوب.
ودخلت خيرة تحمل بين يديها القهوة قائلة:
– «لقد أبطأت عليكم».
فأجابت العجوز ضاحكة:
– «لا تخشي، لسنا نتأهب للخروج!»
فقالت خيرة بلهجة تنم عن الغبطة والرضا:
– «إن سروري اليوم يفوق التقدير. إنني أتخيل أن ما عشناه من أيام مظلمة لم يكن سوى حلم مزعج! أرأيت يا خالة، من قال إنني سأرى مالكاً!»
نظر مالك إلى خيرة بعطف لأنه يعرف جيداً أن هذه المرأة لا تكذب ولا تنافق، إن تحدثت تحدثت صدقاً. ولكن الكلمات لم تستطع الخروج من حلقه. هو هكذا، في مثل هذه المواقف يفضل الصمت، ولا سيما أنه لا يود بحال أن يتلفظ بكلمة تربطه بتعهد لم يفكر فيه.
ولاحظت نفيسة أن ملامح مالك تغيرت عما كانت عليه منذ قليل. وعلت وجهه مسحة من التفاؤل والطلاقة. ولكنها تعجبت أن يستطيع رجل إحسان الصمت إلى هذا الحد، والسيطرة على لسانه لهذه الدرجة دون أن يحرج من معه أو يثير حفائظهم! فلو أحصت ما قال منذ أن دخل لما وجدت شيئاً. بيد أنه لا تبدو عليه كبرياء ولا تدل نظراته الثاقبة على غباوة.
ولما انتهوا من شرب القهوة استأذن مالك للخروج، وقبّل العجوز وخيرة مودعاً إياهما في حنان، وصافح نفيسة مصافحة لا تخلو من حرارة جعلتها ترضى عن نفسها وتقدر له حسن سلوكه.
وقالت له خيرة:
– «عد إلينا قريباً يا مالك!»
فطمأنها بإيماءة خفيفة وخرج هو وابن القاضي.
وقال له هذا وقد اجتازا الباب الخارجي للدار:
– «لماذا لا تبقى الليلة معنا يا سي مالك؟»
فأجابه معتذراً:
– «شكراً، لا أستطيع... يجب أن أدخل إلى المركز، لي شؤون جمة ومواعيد مرتبط بها».
كانت الساعة حينئذ حوالي الخامسة بعد الظهر فاتجه مالك إلى من بقي هناك من سكان القرية ومن جاء من القرى المجاورة، ليودعهم وكان الكثير منهم ما زال هناك في انتظاره ثم قفل راجعاً إلى القرية المركزية هو والمعلم سي الطاهر ومسؤول الحزب للناحية ومن صحبهم من أعيان الناس.

المسافة بين هذه القرية والقرية المركزية لا تتجاوز الخمسة عشر كيلومتراً. لكن السيارة تقطعها في مدة لا تقل عن الأربعين دقيقة، لأن الطريق ليست معبدة. لم تُجعَل في الواقع لمرور السيارات، إنما أثناء الثورة أصلحت قليلاً لمرور جيش الاحتلال للقيام بعمليات «التطهير» المشهورة التي كان يقوم بها في القرى والمداشر. وهكذا صيرتها الدبابات والسيارات العسكرية مع مرور الأيام طريقاً للسيارات. والسكان في الغالب لا يستعملونها إلا نادراً لأن وسائل تنقلهم لا تتعدى البغال والحمير أو المشي راجلين وهم لذلك يسلكون إلى القرية المركزية مسلكاً يختصر المسافة إلى حوالي عشرة كيلومترات، أمّا ما يميّز القرية المركزية عن غيرها من قرى الناحية فهي أولاً المقر الإداري والعدلي والتجاري لكل الناحية، ثم هي معبر للطريق الوطني الرئيسي الذي يربط بين الجزائر وقسنطينة ولطريق السكة الحديدية. ومن هنا كانت لها هذه الأهمية بالنسبة للقرى الأخرى واعتبرت مركزية.
كانت الساعة السادسة ولم يكن الجو في تلك العشية ثقيلاً، فقد كانت ريح الشمال تهبّ مما صير الجو في غاية الاعتدال. وكان مالك والمعلم سي الطاهر جالسين أمام مقر البلدية. والملاحظ أن بين الرجلين لا مكان للكلفة ولا للمجاملة. فهناك نوع من الصداقة العقلية تربط بينهما ولو أنهما قلما يتفقان في الرأي في معظم الأشياء.
وسأل المعلم مالكاً فقال:
– «هل رأيتها؟»
فابتسم مالك قائلاً:









– «من؟»
فقال المعلم:
– «من؟ عذراء القرية!»
فقال مالك مستغرباً كأن لم يدرك شيئاً مما يعني رفيقه:
– «عذراء القرية! كنت أظن أنك هجرت الشعر!...»
فقال المعلم بإلحاح:
– «دعنا من الشعر. هل رأيتها أم لا؟»
فأجابه:
– «لكن من تعني؟»
– «الفتاة التي يذاع أنك تعتزم خطبتها، إن لم تخطبها بعد!»
– «أعتزم خطبتها! لا شك أنك تحلم».
فقال الطاهر ملحاً:
– «قل، هل رأيتها؟»
– «رأيتها».
– «هل هي جميلة؟»
– «جميلة».
– «جمال مدني أم ريفي»؟
– «سماوي!»
– «شفافة... أليس كذلك؟»
نظر إليه مالك طويلاً محاولاً أن يفهم ما يقصد من وراء عبثه ولكن المعلم قال له:
– «أتحبها؟»
فاستغرب مالك وقال له:
– «لكأن اللبن الذي شربت اليوم أسكرك»!
فقال المعلم وكأنه لم يسمع شيئاً:
– «هل تحسن العربية فتاتك هذه؟»
فابتسم مالك وقال:
– «لم أكلمها».
– «وهي، ألم تتكلم؟»
– «لم تتكلم».
فأنشد الطاهر بيتاً من الشعر:
«حواجبنا تقضي الحوائج بيننا ونحن سكوتٌ والهوى يتكلم
أليس كذلك؟»
فتعجب مالك من رفيقه الذي لم يعرف له فيما مضى من لقاءاتهما هذا الوجه. هل هو يمزح أم هناك شيء آخر يحز في نفسه؟

وكان المعلم يقول في نفسه:
«غريب!... أفكر في موضوع وأتحدث عن آخر دون أن أعرف هذه الرابطة العجيبة بين نفسي ولساني! إنها بارعة هذه الخلية الخفية التي توجه كل حاسة في وجهة لا تتلاقى مع الأخرى».
بعد مرور فترة من الصمت قال مالك:
– «أفلا تظن أننا نحسن لأعصابنا لو نذهب إلى مقهى الحاج قويدر فنتناول قهوة هناك؟»
فرد المعلم:
– «لا أشرب القهوة».
– «اشرب شيئاً آخر».
– «لا وجود له هنا».
مالك يعرف أن المعلم لا يشرب الخمر ولكن أحب أن يمازحه فقال:
– «أتريد أن نذهب إلى البرج؟»
– «لماذا؟»
– «لنشرب ما لا وجود له هنا!»
فردّ المعلم هازئاً:
– «ميزانية التعليم لم تُدخِل في حسابها هذا «التدريب» بالنسبة للمعلمين».
– «هل أنت ما تزال في حاجة إلى تدريب؟»
– «أتظن أني مثلك أحسن كل شيء؟»
– «هذا ثناء مبالغ فيه».
سكت المعلم برهة من الزمن وكان يبدو على نظراته غشاء حزين لكن مالكاً لم يخف عليه أن الرجل يشغل باله شيء ما لم يرد التصريح به... شيء قد يتصل بالفتاة. ففكر أن يفاجئه بالسؤال في صميم الموضوع:
– «لماذا لا تتزوج؟»
فالتفت المعلم إليه وقد ارتسمت حول عينيه انكماشات رقيقة تصور عدم اطمئنانه لهذا السؤال المفاجئ، وتصور احتراسه مما يراد أن يستدرج له وقال:
– «أتسأل أم تنصح؟»
– «أسأل».
– «هل وجدت هذه العروس التي ترضى بمعلم؟»
– «ليس أسهل من ذلك».
– «من هي يا ترى؟»
– «لست أدري، ولكن...»

– «ولكن ماذا؟»
– «الأمر يعود إليك أنت. مثلاً هذه الفتاة التي سألتني منذ حين عنها. ألا تراها تصلح؟»
سكت الطاهر وأخذ يخطُّ على الأرض خطوطاً متوازية بعود صغير كان بيده وأردف مالك قائلاً:
– «نالت من الثقافة حظاً موفوراً، وأبوها من أعيان هذه الجهة وأنت كل الناس هنا يذكرونك بالجميل...»
فرفع المعلم رأسه متأملاً وجه مالك، ثم قال بسخرية:
– «هذه هدية أم تضحية؟»
– «لم أفهم ما تعني».
قام المعلم ومد يده إلى مالك مودعاً وهو يقول:
– «لك الليل كله للتفكير فيما أعني».
ثم استطرد قائلاً:
– «إن نهايات الكلمات نوافذ تشرف على آفاق لا تحد!»
ابتسم مالك وقال بسخرية:
– «عسانا أن نقرأ لك في الغد قصيدة: إني واثق من ذلك».
فقال المعلم:
– «إن الذي وضع النقطة للدلالة على النهاية لم يفكر في النهاية».
فرد مالك:
– «قد يكون فكر في بداية جديدة!»
التحق الطاهر بالمجاهدين في ظروف لم تكن فيها فكرة الجهاد واضحة لأبعاد في ذهنه، حيث كان معلماً في مدرسة القرية، ولم تكن سنه تتجاوز خمساً وعشرين سنة. كانت الحرية في نظره شيء جميل جداً لا يمكن الحصول عليه بالسلاح ولكن بإعداد المجتمع نفسياً وخلقياً وثقافياً ليكون في مستوى الحرية.
لم يكن وحده يفكر هذا التفكير، كان هناك عدد من زملائه في التعليم يشاركونه هذا التفكير، لم يسأل أبداً نفسه عن الطريق الموصلة إلى خلق هذا المجتمع الخالي، لسبب بسيط وهو أن هذه الطريق واحدة بديهية، تتمثل في التعليم. تلقى ذلك من معلميه في المدرسة ومن شيوخه في الزيتونة. ثم

من مطالعاته لما تصدره دور النشر العربية من مؤلفات لكتاب مشهورين اتُّفِقَ على تسميتهم «برواد عصر النهضة».. رواد في الأدب الذي لا يحيا فيه المجتمع ولكن يلبسه في أعياده الغالية...
كان الطاهر يفكر كعدد من زملائه وشيوخه أن اللغة العربية هي أغنى اللغات وأن العربي هو أشجع البشر وأكرمهم وأذكاهم وأطهرهم وأشرفهم... إلى آخر أفعال المبالغة التي تتعلق بالسجايا والفضائل.
لم يكن الطاهر يعرف لغة أخرى غير العربية، ولم يكن زملاؤه الذين يفكرون تفكيره يعرفون غيرها، ولم يكن شيوخهم أيضاً يحسنون سواها. ولعلهم أيضاً لم يعرفوا بلداً غير بعض البلدان العربية!
لكن الشيء الهام الذي لم يخطر ببال الطاهر وهو تلميذ ثم وهو معلم ليس هل أن التعليم هو الطريق إلى الحرية أم لا، بل كيف السبيل إلى التعليم نفسه؟ ثم أي تعليم؟
كان الطاهر أيام التعلم وأيام التعليم ذا سلوك كله وداعة ولطف ولين. وكان راضياً كل الرضى بعمله في المدرسة فهو يتقاضى عن ذلك عشرة آلاف فرنك، شهرياً، وليس من سكان القرية من له راتب بالمرة. وكان أبوه يملك أرضاً وبعض الأغنام تكفي لعيشتهم الريفية البسيطة. كان سكان القرية في مجموعهم فقراء وأميين ما عدا بعض حفظة القرآن. وفي هذا الوسط الضيق البدائي كان الطاهر محط رضى الراضين وحسد الحاسدين. ولكن لدى أبويه وذويه كان محل كل اعتبار وتقدير، كما كان مصدر غبطة وفخار لهم.
كان أبوه يقول لحدثه بمناسبة أو بلا مناسبة:
– «الولد الصالح مثل الأرض الصالحة إن لم تربحك الربح الكثير فلن تخسرك».
أما إذا تحدث عن تعليم ابنه فيقول:
– «كانت أرضنا بوراً ولم يكن أبي قادراً وحده على إصلاحها، كان يأخذني معه وأنا طفل، وكان عندما ينتصف النهار ويشتد تعبه يقف متأملاً في الربى المحاذية للرقعة التي هو آخذ في حرثها ثم يقول: آه يا ربي.. القمح لو وجدت فؤوساً!... ثم يلتفت إلي ويقول: الفأس يا بني، الفأس... هو عدو الجوع...



فأحببت الأرض وأحببت الربى. ولما اشتد ساعدي كسرت البور وأصلحت أرضنا، أرض أبي فلم يبق منها مكان لا يقبل البذر، كنت قوياً شديداً آكل الخبزة، وتمر الساعة فإذا بي كأني لم آكل شيئاً... أما الطاهر ابني فضعيف لا يصلح للأرض ولذلك أدخلته المدرسة... فأنا لا أحيا أبداً لأعيله...»

أما أمه فتقول عنه:

– «الطاهر يشبه خاله، رأسه خفيف يحفظ كل ما سمع، ولذلك ربح الامتحان».

كانت الساعة حوالي العاشرة ليلاً، وكان الطاهر المعلم جالساً على السرير الذي ينام عليه، واضعاً رأسه بين يديه، ينظر إلى أرض الغرفة التي صيرتها أفكاره المضطربة مجلداً ضخماً معقد الكلمات مستغلق المعاني. وكان كأنه يبحث في صفحاته العريضة عن ماضيه، عن حاضره، عن مستقبله، لكن الصفحات لم تكن سوى آجر الغرفة، وإذ انتبه من غيبوبته وسباحته النفسية قال متمتماً: «أبحث عن نفسي بين رجلي... كم أنا تافه! أحببت أن أسخر من مالك فسخر بي ولم أنتبه. أليس من الغباء أن أسأل عن فتاة رجلاً خطبها أو سيخطبها؟ أسأله كيف هي؟.. أليس من الطيش أن أحب فتاة بدون أن أراها ولو مرة؟ فتاة لا تعرفني ولا أعرفها، أحببتها لمجرد ما سمعت عنها ولمجرد ما أوحت به إليّ سيماء أخيها. من يدري قد أحب كل فتيات القرى اللائي لهن إخوة صغار يقرأون بالمدرسة! كم أنا تافه!... والزواج؟... أليس من الجنون أن أبحث عن الزواج وأنا أحيا في هذه الغرفة؟ غرفة ليتني أملكها. غرفة المدرسة! ما أشقاني بغباوتي، ليس لي حتى السكن وأفكر في الزواج... يا لها من سعادة زوجية في غرفة ضيقة، غرفة المدرسة! حتى النوم لا أستطيع أن أنام. وهذا الحرّ الذي أخذ ضغطه يشتد... لا شك أن ريح الجنوب مقبلة...»

وكانت ريح الجنوب فعلاً قد أخذت تستعد للوثوب على القرية النائمة. وزالت تلك البرودة العليلة التي أنعشتها كامل العشية وجزءاً من المساء. وقام الطاهر فخلع كل ثيابه ولبس عباءة صيفية خفيفة، ثم تمدّد في الفراش وكانت إحدى قصص نجيب محفوظ فوق منضدة النوم مع قصص أخرى فأخذها ومضى يقلب أوراقها ثم وضعها على صدره ومد يده ثانية إلى قصة أخرى فكانت لطه حسين: «المعذبون في الأرض». وبمجرد أن قرأ العنوان وضعها جانباً وقال:

– «المعذبون في الأرض أنا واحد منهم. حياتي أبشع من حياة الفلاح المصري...»

ثم أخذ قصة «الوسادة الخالية» فمسكها بين يديه مدة دون أن ينظر إليها أو يفتحها ثم وضعها فوق قصة «المعذبون في الأرض». وقام من فراشه واتجه إلى خزانة الكتب ففتحها وأخذ مجموعة من الكتب وعاد إلى الفراش من جديد. وكانت هذه الكتب عبارة عن قصص أجنبية مترجمة إلى العربية. وأخذ «قصة الأمس» لغوركي... في الواقع لم يكن هناك ما يدل على أنه ينوي المطالعة فعلاً، لأن حزمة الكتب التي جلبها إلى السرير لا تكفي لمطالعتها الليالي العديدة... لكن لم يعبث بأوراق قصة الأم كما عبث «بالوسادة الخالية»، كأنّ قرّ الجو الذي يحيا فيه أبطال القصة أنساه الحرارة اللافحة التي انطلقت تمهد لريح الجنوب!

إذا تحركت ريح الجنوب التي يسميها سكان الناحية «القبلي»، وكان الفصل صيفاً فإن القرية المركزية تمثل للزائر الأجنبي مشهداً حزيناً يؤلم النفس والنظر. تشبه القرى التي تصورها عدسات المصورين بعد النكبات الحربية أو الكوارث الطبيعية. ولو رُئيت القرية حينئذ من طائرة «هليكوبتر» لمثلت وادياً كثير التعاريج، لا يسيل فيه الماء ولكن يمتلئ بالغبار واللهب!

في هذا الجو الكئيب وفي تلك الطريق الوحيدة التي تشق القرية كان المعلم وحده ماشياً في ملل إلى المقهى. في الواقع لم يكن يدري بالضبط هل كانت رجلاه فعلاً تتحركان، أم الريح هي التي تدفعه أمامها دفعاً!

بالمقهى مقعد طويل من خشب، وأحصرة حلفاء مفروشة بها الأرض. جماعة من اللاعبين يجلسون حول طاولة «الدومينو»، ومجموعة ثانية تجلس بزاوية المقهى حول مربع أدكن من الطاغ المقوى، عليه أوراق اللعب. المقعد الخشبي الطويل المماس للحائط شاغر. الحاج قويدر صاحب المقهى أمام «الأوجاق» يمسك بيده اليسرى مجموعة من المغالي الصغيرة بطريقة عجيبة، وباليمنى ملعقة صغيرة يضع بها البن والسكر في المغالي على النمط التركي القديم.

أنواع القهوة التي يطلبها زبائنه ثلاثة: قهوة «مون» بها قليل جداً من السكر. وقهوة «قد قد»، يتساوى فيها مثقالا السكر والبن. وقهوة حلوة. يضع الحاج قويدر بالنوع الأول ملعقتي بن ونصف ملعقة سكر وبالنوع الثاني ملعقتي بن ومثلهما سكر. وبالنوع الثالث ملعقة بن وثلاث ملاعق سكر. يأخذ البنّ والسكر من صندوق صغير مستطيل الشكل، ذي درجين، درج للبن والآخر للسكر. صندوق صيره القدم والبن والدخان أسفع اللون. بين الحاج قويدر وزبائنه طاولة سوداء كبيرة عليها الكؤوس والفناجين والأكواب القصديرية وسطلان كبيران ماؤهما أسود من غسل الفناجين.

الطريقة التي يعْتَمُّ بها الحاج قويدر تزيد من وقاره، والطريقة التي يُعِدُّ بها القهوة جعلته في أعين معارفه «شيخ القهوجية» وأخيراً الطريقة التي يتكلم بها تضعه في مقدمة الفصحاء الخبيرين بمواطن الكلم. أضف إلى ذلك محافظته على أداء الصلوات في أوقاتها التي أكسبته هيبة لدى الناس وأكسبت قهوته لذة. لأن القهوة كما يقولون في هذه الناحية طاهرة تحب الطهارة!

هناك ميزة أخرى للحاج قويدر: اللعب. فهو يعتقد أنه أمهر اللاعبين. صحيح، هو لا يلعب دائماً ولكنه إذا لعب فإما أن يخسر إلى النهاية أو يربح أيضاً إلى النهاية. وسواء ربح أم خسر فالقهوة «إذا لعب» تُسْقى بلا ثمن.

هناك شيء آخر يتعلق بحياة الحاج قويدر: أيامه لا تقصر ولا تطول مهما اختلفت الفصول. تبتدئ من الساعة الرابعة صباحاً وتنتهي عند العاشرة ليلاً!

الذباب، الحر، الريح، العاصفة، هرج اللاعبين، ثرثرة الحاج قويدر، والحديث الذي جرى بينه وبين مالك... كلها تدور في رأس الطاهر.

كان جالساً وحده على المقعد الخشبي، وقد قدم له الحاج قويدر قهوة. ولكن ما كاد الفنجان يصل إلى شفتيه حتى سقطت فيه ثلاث ذبابات، فوضعه جانباً.

غريبة هي الصورة التي كانت ترتسم في خيال الطاهر حينئذ... تصور نفسه سيكارة، وتصور من بالمقهى أعقاب سكائر، وتصور قاعة المقهى مدخنة ضخمة من طين، وتصور الحاج قويدر أمام «أوجاقه» غليوناً كبيراً ينفث دخانه في ترفع وكبرياء!

جاء للمقهى لا ليشرب القهوة، ولا بغاية الجلوس فيها مع روادها، فهو ينفر جدّ النفور من هذه الأحاديث التي يتجاذبها جلاس المقاهي. ولكن ليسمع ما جدّ من جديد في حياة القرية التي يسكن بها أو بالقرى المجاورة. إذ بالمقهى تستقى الأنباء عمّا يجر في قرى الناحية. ولا شك أن خطبة شيخ البلدية لابنة ابن القاضي تهم فضول كل الناس... كما استولت على اهتمامه هو دون أن يشعر...

كان مطرقاً برأسه، يبدو عليه الحزن، فلاحظ الحاج قويدر كآبة الرجل وامتعاضه من الذبابات التي عكرت صفو قهوته فأعدّ له قهوة ثانية وحملها إليه، ناصحاً إياه في هدوء ووقار:

– «اشربها ساخنة فالذبان لا يسقط إلا إذا أخذت تبرد».

– «شكراً يا عمي الحاج. في الواقع شربت القهوة كثيراً هذا الصباح».

ابتسم الحاج قويدر وهو يتساءل في نفسه عن نوع هاته القهوة التي تناول منها كثيراً هذا الشاب والنهار ما يزال في أوله! فقد كان الحاج قويدر في ماضي أيامه، عندما كان للقهوة معنى، وعندما كان لا يشربها إلا القليل من الناس، يوم أن كانت لا تدخل البيوت مهما كان شأنها إلا في المناسبات... كان الحاج قويدر عندئذ لا يبيع قهوتين متتاليتين لشخص واحد مهما بذل من مال. كان يفسر ذلك بأمرين:

إما أن قهوته ليست جيدة، وإما أن الشخص لا يدرك جيد القهوة من رديئها، وفي كلتا الحالتين فإن مهنته التي يعتز بها يلحقها عيب. وهذا ما لا يرضاه أبداً. لأنه يعتقد اعتقاداً راسخاً أن ليس هناك من يحسن إعداد القهوة مثله!

جلس الحاج قويدر إلى جانب الطاهر وأخذ يتحدث في هدوئه وإيمانه الدائم بآرائه:

– «الريح هي التي حشرت اليوم كل هذا الذباب... على كل هو خير من الناموس».

فردّ الطاهر بتذمّر:

– «كلاهما شر. والبلدية لم تعمل شيئاً لا ضدّ هذا ولا ذاك».

ضحك الحاج قويدر من تفكير هذا الشاب المثقف، وتساءل:

– «ماذا عسى البلدية أن تعمل ضدّ الذبان؟»

أجاب الطاهر بحدّة:

– «الذباب لم يخلق في السماء وإنما في الأرض، في أرض القرية، فيما يملؤها من قاذورات. والبلدية هي المسؤولة عن النظافة».

فرد الحاج قويدر في هدوئه الدائم وابتسامه الغامض الساخر:

– «النظافة تحب الماء. والماء هنا لا يكفي حتى للشرب يا ولدي».

التفت الطاهر بكل جسمه إلى الحاج قويدر ليفهمه مسؤوليات البلدية، فوجده ينظر إليه بإمعان، وملامحه تدل على أنه ينتظر هذا التوضيح المتعلق بالبلدية. كما لاحظ أن ابتسامه الغامض لا يعبر عن المجاملة بقدر ما يعبر عن شيء يشبه السخرية والإشفاق معاً. وقال:

– «أعرف أن الماء قليل هنا، ولكن من المسؤول عن قلته؟ أليست البلدية؟ لو فكرت في جلب الماء للقرية، وتنظيم توزيعه لما اكتنفنا الغبار حتى لكأننا في صحراء!...»

تبسم الحاج قويدر من هذا الرأي السطحي الذي لا ينفذ إلى حقائق الأشياء، وقال:

– «إذا نُظِّمَ توزيع الماء فذلك يعني أن الناس يجب أن يستعدوا لمواجهة غرامة جديدة... وهم لا يستطيعون حتى دفع ثمن الخبز. إن الناس فقراء يا ولدي».

– «أعرف ذلك. ولكن من المسؤول عن هذا الفقر، أهم السكان أم البلدية؟»

حرك الحاج قويدر رأسه مستغرباً وقال بلهجة المرشد:

– «منذ خلقت الدنيا، فيما نعرف، والفقير هو المسؤول عن فقره». فردّ الطاهر نافياً:

– «كلا ليس الفقراء هم المسؤولين عن فقرهم. إنما المسؤول الأول هو النظام السائد. والمسؤول هنا هي البلدية».

لم يملك الحاج قويدر نفسه من العجب وهو يسمع هذا التفكير الغريب! وكان في نفسه يقول: «إن هؤلاء الذين يقرأون الجرائد قلما تسلم عقولهم من الغلط، إذ ما دخل البلدية في فقر الناس أو غناهم؟» ثم استوضح قائلاً في لهجة التعجي»:

– «هذه أول مرة أسمع مثل هذا الكلام. وضّح لي كيف تكون البلدية مسؤولة عن فقري أو غناي؟»

– «الأمر بسيط، لو فكرت البلدية في إنشاء ورشات للعمل، ولو فكرت في بناء دار للتربية والثقافة الشعبية، ولو فكرت في تعبيد طرق هذه القرية والقرى التابعة لها، ولو فكرت في شق المجاري لما يخنقها من قاذورات... لو فكرت في كل هذا، لما بقي فقر ولا جهل ولا ذباب! ولكنها لا تفكر ولن تفكر ما دامت كما هي، لأن هذه الأعمال تكلفها مجهودات مستمرة، هي تحب الراحة... أفهمت؟»

ابتسم الحاج قويدر ابتسامة يمتزج فيها الإعجاب بالسخرية وقال:

– «لكي تقوم البلدية بكل ما ذكرت يجب أن تصير حكومة، لها خزانة مالية سحرية. أما البلدية يا بني لا تستطيع هذا».

كان الطاهر يشعر أن ما ذكره بشأن البلدية حق ولكنه لم يكن أبداً ينوي الحديث في هذا الموضوع مع رجل عيناه تنظران إلى الماضي فإن نظرتا إلى المستقبل فإنما كنهاية. كل ما كان ينويه بإثارة موضوع البلدية أن يصل إلى موضوع زواج مالك بهذه الفتاة السحرية التي استولت على اهتمامه وقال بتنهد:

– «الخزانة المالية التي تملكها البلدية لا تنضب، لو عرفت كيف تنفقها... هذه السواعد المفتولة المشلولة التي تمتلئ بها المقاهي هي المالية الحقيقية لكل بلدية. ولكن البلدية كما قلت لا تفكر في هذا. البلدية تفكر في الزواج!»

فقال الحاج قويدر ناصحاً:

– «يتزوج شيخ البلدية أو يطلق هذا لا دخل لي فيه أنا يا بني... وإذا أردت أن أقول لك رأيي بصراحة: إننا في هذه الجهة نحسن النقد والسخط ولكن لا نحسن العمل والصمت».

فرد الطاهر بحدة نافياً عن نفسه هذه التهمة:

– «ليس كل الناس. فهناك من يعمل الشهور الطويلة ولكن لا أحد ينتبه إلى ذلك. يعمل الليل والنهار...»

فتساءل الحاج قويدر في سذاجة:

– «من هذا الذي يعمل الليل والنهار ولم نسمع به؟»

– «وماذا يهمك أن تعرفه؟»

– «للاطلاع... الرجل إذا شاخ يصير مثل الصبي في حب الاطلاع؟»

– «أنا في واد وأنت في آخر يا عمي الحاج!»

لم ترق الحاج قويدر هذه العبارة ولم يرد الاستسلام فقال:

– «ألا تغضب إن قلت لك شيئاً؟»

– «قل ما تريد».

– «ما منعك أنت الذي تنتقد البلدية أن تعلم الناس القراءة والكتابة طوال شهور الصيف؟ هل تخشى أن ينقص علمك إذا أنفقت منه على الناس، أم تخشى أن تضر الحرارة المدرسة إذا فُتِحَت في الصيف؟»

نظر إليه الطاهر في شيء من الاحتقار وقال ساخراً:

– «أخشى أن يغضبك ذلك. لأن المقهى عندئذ لن يبقى به إلا الذباب».

ولم تنته الجملة من فمه حتى صاح أحد اللاعبين:

– «مقفولة. بلا. بلا!»

فهز الحاج قويدر رأسه في حزن وتمتمت شفتاه بكلمة اللاعب:

– «مقفولة بلا، بلا!»

وأخذ الفنجان الذي سقط فيه الذباب ومشى نحو جماعة اللاعبين ليشهد النهاية التي وصل إليها اللعب!

الفصل الثالث



قالت خيرة في نفسها وهي ترى القرية في لجة دكناء من الغبار والتراب:

– «لا شك أن الريح تكون أول نذير للناس يوم تقوم الساعة!»

ومهما كان شأن هذا الجو القاتم وتأثيره على الفلاحة فمن المحقق أن تأثيره في النفوس لا يدع متسعاً لومضة من سرور. وكانت خيرة حائرة في الكيفية التي تفاتح بها ابنتها بشأن موضوع الزواج. بيد أنها مضطرة لإطلاعها في ذلك الصباح على الأمر، فزوجها لن يقبل منها أي عذر. عندما يعود إلى الدار سوف يسألها: هل أخبرت نفيسة... وإذن فالتردد أو تأخير المسألة إلى موعد آخر لا يليق.

وقالت لها بخشية:

– «في الخريف لن تعودي إلى الجزائر».

فأجابت نفيسة بدهشة وقد هزّ نفسها هذا التصريح المباغت هزاً مؤلماً:

– «ودراستي؟»

حاولت الأم أن تظهر حيادها وقالت:

– «أبوك أراد ذلك. لن تعودي إلى الجزائر».

لم تستطع نفيسة أن تتصور الأسباب التي دعت أباها لاتخاذ هذا القرار، ولا المصير الذي ينتظرها بعد أن تنقطع عن التعلم. فقدت كل سيطرة على أعصابها ولم تقدر على تركيز فكرها. عشرات الأسئلة تواردت إلى ذهنها لكن كل سؤال يمَّحى بغيره قبل أن يكتمل ويتضح. وشعرت أنها داخل دهليز أسود لا يصل حتى الحدس إلى نهايته، وأيد من حديد تدفعها بعنف إلى الأمام، إلى الأمام... قد تكون تلك الصورة تمثل المصير الذي كانت تتصوره إن هي انقطعت عن التعلم، واضطرت للحياة بهذه القرية المنعزلة، صورة قديمة أخرجها من محيط اللاشعور تصريح أمها المفاجئ!...

– «التعلم أمر ثانوي...»

فقاطعتها نفيسة بسخط مكظوم قائلة:

– «التعلم أمر ثانوي؟... ترى ما هو الشيء الأساسي الذي تريدونه لي؟»

– «الشيء الأساسي لمن في سنك هو التفكير في المستقبل...»

ليس السرور وحده الذي يضحك فاليأس أيضاً يضحك. وضحك نفيسة من هذا المستقبل الذي يفكر في بنائه بالانقطاع عن التعلم كان بشعاً إلى حدّ بعيد، بالرغم من سحر شفتيها الرقيقتين وجمال ثغرها الفاتن.

لم يغب عن نفسها ما تعني أمها بالمستقبل... وأغمضت عينيها كأنها تودّ بذلك أن تفلت من المكان ومن هذه الأم «الغبية»، ومن هذا الواقع البشع...

وودت الأم أن تتخلص نهائياً من هذا السر الذي يثقلها وقالت:

– «أبوك يعتزم تزويجك».

قالت ذلك ونظرت إلى وجه ابنتها تتأمله محاولة أن تعرف التأثير الذي أحدثه فيها تصريحها. لكن نفيسة لم تمكنها من ذلك. قامت بغضب واتجهت نحو حجرتها تاركة أمها تتمتم معاتبة لائمة هذه البنت التي لا تعرف للأمومة إلاًّ ولا ذمة... فتحت نافذة حجرتها المطلة على جزء من البستان، ومضت تحدق فيما لا نهاية له. وارتسمت في ذهنها صورة وهي ترى قمم جبال جرجراء في نهاية الأفق، صورة لا تمثل المدرسة ولا الجزائر وشوارعها الطويلة ولا الفتيان والفتيات الذين يغدون ويروحون أزواجاً أزواجاً في العشايا الظليلة، بل صورة راعي الغنم، الذي استمعت ذات يوم لألحان نايه العذب فتخيلته أميراً سحرياً في عالم من عوالم الرؤى والمستغلقات. تخيلته جالساً فوق صخرة عالية يعزف على نايه ذي الصوت الحنون لحناً حزيناً لنعاجه التي أفقدها الجفاف أبناءها ونصاعة ألوانها...

وكانت تحسّ باختناق شديد، مما جعلها تتلمس عنقها بصورة آلية، لتتعرف على آثار ذلك فيه! لكن الاختناق كان داخلياً يشبه ما تبصره عيناها من غبار في ذلك الحين أحدثته زوابع مفاجئة. لم تكن تفكر، كانت حائرة. وحيرتها أكبر من أن تعود إلى سبب واحد. كانت حيرة جافة، صارمة، تعبر عن عجزها أمام هذه الغيبيات الكثيرة الخارجية التي تخط للناس مصائر لا مناص لهم من حياتها، سواء لاءمت آمالهم أم حطمتها. أبوها يقرر منعها من العودة إلى الجزائر، من مواصلة الدراسة. يقرر تزويجها، يختار هو من تتزوج به أمها ترى أن سنها بلغت حداً لم يعد يسمح لها إلا بالانزواء في حجرة مظلمة! القرية لا تهضم حرية فتاة بلغت سن الرشد. كأن الرشد انحراف عقلي تُقَيَّدُ به الحرية! الدين أيضاً له كلمة حتى في الملبس، عليها أن تلبس أثواباً لا تسمح للنور بملامسة جزء من ساقيها أو ذراعيها أو صدرها، وليكن الحر شديداً أو خفيفاً ذلك لا يهمّ. الحظ أيضاً له كلمته، عليها أن تذعن لما يقدر لها من حياة. غيبيَّات وظروف خارجية تتحكم في مصيرها. تقاليد بدائية تقيّد سلوكها... ماذا عساها أن تفعل وحدها لمواجهة كل ذلك؟ هل تثور؟ ولكن أية ثورة، وفي أي اتجاه؟ إنها لا تعرف أحداً في القرية. وهب أنها عرفت ماذا يجدي ذلك؟ فلا فرع هناك للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ولا غيرهما. لكنها مع ذلك لا بد أن تثور، أن تعارض كل سيطرة خارجية مهما كانت. ثورتها وحدها التي تستطيع تحديد الاتجاه والطريق.

وتذكرت في هذا الخضم من الأفكار فكرة قديمة قرأتها في كتاب أو سمعتها أو تكونت في نفسها لسبب من الأسباب:

«الحرية الممنوحة تشبه خبز الصدقة!»

وقامت في انفعال وعادت مسرعة إلى أمها قائلة في عنف:

– «قولي له لن أتزوج، ولن أنقطع عن دراستي. سأعود إلى الجزائر مهما كان الحال!»

ذعرت الأم وهي ترى ابنتها في هذه الحالة العصبية! واقتربت منها تحاول تهدئتها، ولكن هذه دفعتها بقوة وقالت:

– «الذل الذي عشت فيه أنت لن أعيشه! كوني أمّاً لغيري إن شئت. وليكن أباً لمن أراد، أما أنا فلن أدع هذه اللعنة تبلغ مني ما بلغت من غيري. لست امرأة، أفهمت؟ لست امرأة!»

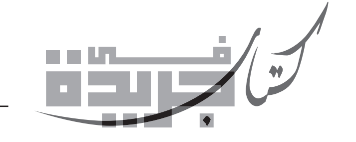
وخرجت في غضب عائدة إلى حجرتها.

ماذا عسى الكلمات أن تعبر عن مشاعر أم في مثل هذا الموقف؟ حتى قواها الجسمية خانتها. أحست كأن الأرض تحت قدميها صارت دوامة، تدور دوراناً مجنوناً وتهبط، تهبط أبداً... ووقعت على الأرض. لم تستطع التنفس ولا الكلام. وشعرت كأن ماء شديد البرودة يسيل في مفاصلها. وغمرتها موجة من العرق البارد، حتى أحست أن أثوابها التصقت بجسمها... فترة من الوقت قضتها في وجود مظلم خانق لم تعرفه حتى في أشدّ الأحلام بشاعة. ثم أخذت الدموع تسيل على خديها. دموع أمومة فقدت في لحظة كل مضمون. دموع على عمر رأته فجأة يقصر، وقد كانت تتوهم امتداده فيما تلد من أولاد. دموع على حرمان عاشته لينعم العقب وتحسن العاقبة. دموع على أشياء كثيرة يعسر عدها. وبرزت في نفسها بغتة ذكرى بعيدة... عادت بجميع أجزائها إلى شعورها. تذكرت يوم أن كانت حبلى، يوم أن كانت نفيسة مضغة في أحشائها، تتحسسها كما تتحسس أي جزء من جسمها، تذكرت أيام القيء والغثيان والإرهاق الشديد الذي سبّبه لها حملها. تذكرت مرارة الوضع وآلامه القاسية. تذكرت ذلك الحنان الذي كان يتدفق لبناً وألماً من نهديها وهي ترضع نفيسة. وتذكرت في النهاية تلك الدموع الهادئة التي طالما أسالها الشوق إلى نفيسة البعيدة الغريبة... والآن، ماذا بقي لها من كل ذلك؟

لم تعرف خيرة يوماً في حياتها أطول ولا أشد سواداً من هذا اليوم، باستثناء أيام الثورة المسلحة، على أن أيام الثورة بالرغم من قساوتها كانت الأبصار تستشف من خلال دخانها وآفاقها المظلمة أشعة نور بعيد يملأ النفوس أملاً والقلوب رجاء. أما هذا اليوم القاتم الذي عاشته خيرة فلم تتصور وراءه إلا الفراغ واليأس. كان يمكن أن تفهم موقف ابنتها لو فتحت لها نفسها وحدثتها بما يؤلمها ويغضبها كما تفعل البنات. وكانت عندئذ لا تجد لديها المواساة والعطف فقط بل العون والسند. أما وقد دفعتها وأهانتها في أعزّ ما تعتزّ به ولم ترع لها حرمة الأمومة فلم تبق تربطها بها منذ اليوم صلة.

فكرت خيرة أثناء نوبة من الغضب أن تقول لزوجها بمجرد رجوعه للدار: إن هذه الفتاة العاقة يجب أن تعزل وتسجن، أو تنفى، لكنها بمرور الساعات تحول سخطها وغضبها وبكاؤها إلى يأس هادئ صامت.

لم يخطر ببال الأم أبداً أن هذه البنت يمكن أن تكون لها نظرة في الحياة تضاد مطلق التضاد ما تعارف الناس عليه هناك. لأنها تراها بنتاً والبنت لا يمكن أن يكون لها رأي أمام والديها. وفي المساء عندما عاد زوجها إلى الدار سألها هل أخبرت نفيسة بما أوصاها أم لا، فقالت:







– «هـي هـنـاك بـحـجـرتـهـا، تستطيع أن تقول لـهـا أنت».

– «أحَدَّثْتِها وأبدتْ معارضة؟»

– «قلت لك لم أحدثها ولن أحدثها. هي أمامك إن شئت أن تحدثها أنت».

– «أنا قررت أن تتزوج وقراري قضاء. إذا كنت لا تستطيعين حتى إقناع إبنتك فلماذا تصلحين؟»

– «أصلح لكنس المعاطن!»

– «كنس المعاطن... أتريدين أن أكنسها أنا»؟

فهم ابن القاضي أن زوجه تخاصمت مع ابنتها. وخشي أن لا تعطي للموضوع ما يستحق من أهمية. طبعاً هو لم يصارحها بما يرمي إليه من زواج نفيسة بشيخ البلدية. ذلك سر لا يمكن أن يطلع عليه أحد. أيقول لزوجه أن شيخ البلدية يمثل أكبر خطر بالنسبة إلى مصالحنا؟ هل تستطيع أن تفهم امرأة لا تعرف من الحياة إلا الحياة المنزلية ما تعجز عن فهمه أشد العقول دهاء؟ إن مصير الملكية رهيب بالنسبة للملاك. وهو واحد منهم. فإن لم يبتغ الوسائل الكفيلة بالحفاظ على أرضه من الآن فستضيع منه. وحينئذ أي معنى يبقى لحياته؟ حياته التي تستمد كل قواها من هذه الأرض التي بين يديه. والوسيلة لإبقاء ما كان على ما كان عليه هي مصاهرة شيخ البلدية الذي بحكم مركزه وبحكم ما يعرف عنه من ثورية ونضال يستطيع أن يفعل الكثير، وخصوصاً بهذه المصاهرة يصير ذا منفعة في هذه الأرض. ومعنى ذلك في النهاية أنه يصير أكبر مدافع على بقائها لصاحبها. والبنت بعد ذلك مهما كانت فهي امرأة، إن تزوجت بشيخ البلدية أو بغيره فما الفرق، لولا ما يخشاه من ضياع أرضه لاستطاع أن يدعها تعود إلى الجزائر لمواصلة دراستها، ولأمكنه أن لا يرغمها على الزواج إذا لم تكن راضية... لكن الموقف يدعو إلى السرعة فالإشاعات المتعلقة بالإصلاح الزراعي كثر دورانها على الألسنة. لو حدث زوجه بكل هذا ماذا ستقول؟. لا شك أن ابنتها تهمها أكثر من الأرض. وهذا ما لا ينبغي أن يقع أبداً.

كانت هذه الخواطر كلها تدور في ذهن ابن القاضي وهو يرى زوجه في حالتها تلك التي تعبر عن تذمرها من ابنتها ومن كل ما يتصل بها. وقال:

– «يجب أن تقنعيها بالحسنى. هي صغيرة لا تفرق بين ما يصلح وما لا يصلح. ومالك ابن لنا: من أجل إنقاذ الحسين أيام الثورة عرّض نفسه للموت. ثم هو من خيار الرجال في هذه الناحية وأكثر من ذلك سنحيي بهذه المصاهرة ذكرى ابنتنا الفقيدة».

– «قلت لك، حدّثها أنت. أما أنا فلن أكلمها».

– «عجيب ما تقولين يا امرأة! لم نسمع بأم تكن لابنتها عداوة إلى هذا الحدّ. إن قالت لك كلمة طائشة أثناء نوبة من الغضب فلا ينبغي أن تجترّي ذلك إلى ما لا نهاية له».

– «إنها ترفض الزواج».

ضحك ابن القاضي وقال:

– «ترفض؟ ذلك لا يكون أبداً. إن قراري ينفذ مهما كان الأمر».

وأضاف قائلاً وهو خارج لأداء صلاة العشاء:

– «إذا كنت لا أستطيع التصرف حتى في ابنتي فلماذا أحيا بين الناس إذن؟»

سكتت الريح وعاد إلى القرية هدوؤها وصفاؤها، وأصبحت نفيسة بعد قضاء ليلة مليئة بالاضطراب والدموع تحس أن هذا السجن الذي ألقيت فيه لا يخرجها منه الغضب والسخط ولكن إعمال العقل والتماس الأسباب... ولم تجد فيما فكرت فيه من وسائل إلا مكاتبة خالتها بالجزائر وإطلاعها على ما يجري...

وأخذت قلماً وورقاً وشرعت تكتب:

«قرية... في ... أوت...» 1964

خالتي العزيزة:

السجن الذي أقضي فيه أيامي لدى أهلي يزداد ضيقه يوماً بعد يوم. وإن أبي الذي يمثل في نفس الوقت القاضي والجلاد، حكم ألاّ أعود إلى الجزائر لمتابعة دراستي. وقرر أن يزوجني من شخص لا أعرفه ولا أتصور كيف يمكن أن أحيا معه. فعمره يبلغ على الأقل ضعف عمري. يقال إنه كان خطيب أختي زليخة المأسوف عليها. وهو يشغل منصب شيخ بلدية.

ومهما يكن شأن هذا الشخص فإن حياتي لم أفكر لحظة أن أقضيها في هذا الخراب. ودراستي لا يمكن أن أنقطع عنها.

لا أستطيع أن أحدثك بتفصيل عما وقع بيني وبين أمي، ولا عما قررته بشأن مصيري.

كل ما أرجوه منك في هذه الظروف الصعبة التي أجتازها أن تقدمي إلى هنا عساك أن تستطيعي الحيلولة دون تنفيذ ما قرره أبي، وأعود معك إلى الجزائر. وإلا فسأجد نفسي مضطرة في النهاية لإيجاد حل بنفسي لمصيري مهما كانت عواقب هذا الحل.

خالتي العزيزة أرجوك، أرجوك أن تقدمي. إني أنتظرك.

أقبلك وأقبل الجميع. نفيسة».

ولما انتهت من الرسالة فكرت أن ترسلها للبريد مع الراعي. وهكذا لما عاد رابح بالغنم عند الظهر للقيلولة قررت أن تخاطبه خفية مهما كلفها ذلك. فتحت النافذة الخارجية وانتظرت مروره...

وإذ اقترب من الدار أدهشه أن يرى النافذة مفتوحة ونفيسة أمامها! وتعجب أن لم تختف إذ رأته! إنها تشير إليه أن يقترب! لم يكد يصدق المسكين نظره! إنها تشير إليه بالاقتراب لا شك في ذلك!

اقترب رابح من النافذة في حذر فقالت له نفيسة:

– «رابح هل تستطيع أن تذهب إلى البريد؟»

– «لكن البريد بالقرية المركزية!»

تردد لحظات ثم قال:

– «إن شئت أذهب غداً. هذا المساء أطلب من أحد الرعاة أن يرعى الغنم غداً مكاني. وأذهب».

– «عندي رسالة أريد إرسالها. وأودُّ أن لا يعلم أحد بذلك».

– «وكيف تريدين أن يعلم بها؟ أنا لا أقول لأحد».

– «ها هي الرسالة، احتفظ بها. ضعها بيدك في البريد، إن الطابع ملصق عليها».

– «كوني هنيئة، سأضعها بيدي... ولن يعلم بها أحد».

– «انصرف الآن واحذر أن يراك أحد».

– «لا تخشي شيئاً فالناس نيام. وهذا الحر لا يدع أحداً يتحرك. أنا أعرف كل ما يدب في هذه القرية، أعرف حتى كلابها!»

ضحكت نفيسة من هذا العطف الغريب الذي أبداه لها الراعي. وتعجبت من انفتاح نفسه لها مع أنها لأول مرة تحدثه!

وانصرف رابح وعادت نفيسة إلى داخل حجرتها وأحست بنشوة من السرور تغمرها، إذ يد اليأس التي كانت تخنق روحها بعنف، منذ حين، أخذت أصابعها تنفرج وتلين. حتى الأفق أخذ يتسع أمامها وبدأت تعود إليه زرقته!

لحظات وجيزة هذه التي جرت فيها المقابلة ولكنها كفت نفيسة أن تحدد الأجزاء الهامة لصورة هذا الشاب وتخزنها في نفسها: زاوية فمه اليمنى أحد من اليسرى حيث يضع الناي. أصابع يديه طويلة وغليظة ولكن عندما تلمس الناي كانت ترق وتلين حتى تجعل الألحان أرق وأعذب من الأنسام العليلة. في عينيه بريق حالم يعبر عن هذا العالم المجهول الذي أحسّتاه ولم تدركاه. أنف قصير يعبر عن سذاجة صاحبه، وعن انفتاح نفسه إلى الغير. حمرة تكسو بشرته تشبه حمرة الرمان، صافية صفاء الأشعة المختزنة فيها.

وحاولت نفيسة أن تتذكر ما كان يلبس ولكن عينيها لم تحتفظ بأي صورة لملابسه!

لكن ما يهمها لباسه؟ فالرعاة لا يختلف لباسهم صيفاً وشتاء: رقع وأسمال ألوانها حائلة وأوساخها بادية. فالمهم إذن أن لا تتذكر الشقاء، إنما عليها أن تتذكر فقط ذلك البريق الحالم الذي يلمع في عينيه. وتلك الأشعة الحمراء المختزنة في جسمه.

صحيح أنها توهمته غبياً، ولذلك لم تشعر بأي خجل أمامه. كأنه ليس أجنبياً عنها أو... ليس رجلاً. بيد أن فتوته كانت تعبر عن الرجولة في أطغى ما يمثلها!

توهمته غبياً وتصورته لا يعرف إلا عزف الألحان الجميلة ومناجاة المروج والتلال. هو أمير طيب ساذج لمملكة وديعة هادئة هي مملكة الأغنام مملكة آفاقها تتغير في كل لحظة بتغير المراعي. لا تحدها حدود ولا تخضع لقيود هي مملكة النور والهواء الطلق والحرية. ولو أنها في نظر صاحبها كانت تمثل الشقاء، حيث الرياح والعواصف والذئاب، وحيث الحرّ والجوع والعطش والعذاب.

أما الراعي فكان يقول في نفسه بعد مقابلة الفتاة:

– «هي تود شيئاً آخر وتتظاهر بإرسال الرسالة. ظنتني غبياً لا أفهم ما تريد!... المرأة هي المرأة سواء عاشت بالجزائر أم بالبادية... لكنها جميلة! لم أدر أبداً أنها جميلة إلى هذه الدرجة!»

الفصل الرابع

دار ابن القاضي معروفة لدى الخاص والعام ولكن رابح الراعي كان يعرفها معرفة أخرى... كان مثلاً يعرف أن عدد شجرات التين في الجهة الشمالية للدار ثلاث، وشجرة لوز وأخرى من البطم. وفي الجهة الغربية خمس شجرات صفصاف وكرمة، وشجرة رمان. أما في الجهة الشرقية فلم يكن فيها شجر ما عدا شجرة لوز سودها ما تعاقب عليها من أزمان، كانت إذا أورقت الأشجار وأزهرت لم تجد هي ما تغطي به شقوقها وقشورها. أما في الجهة الجنوبية فلم يعدّ الأشجار لأن هناك البستان الذي يتصل ببقية بساتين القرية.

كان رابح في حديثه مع نفسه عن دار ابن القاضي يقول: أعرف كل ما فيها وما يحوط بها من شجر وحجر... والكلب يعرفني...

صحيح معرفة الكلب ربما كانت أهم من الشجر والحجر لمن يريد الاقتراب من دار ابن القاضي. ورابح كان ينوي ذلك. بدأت الفكرة تتهيأ في رأسه منذ أن قابل نفيسة. فهم من رجائها إياه أن يذهب برسالتها إلى البريد فهماً ضالاً، حرارة الغريزة الجنسية الطاغية في شرايينه فتحت في تصوره نافذة إلى الممتع من الخيالات واللذيذ من الأحلام. لم تكن نفيسة في نظره ولا أي امرأة أخرى شيئاً آخر سوى مطلب جنسي. ثم إن نفيسة أكثر من أي فتاة أخرى كانت في تقدير رابح فتاة ساذجة. هو في هذا التقدير يشارك معظم القرويين في هذه الناحية من أن سكان المدن قلما يصل بهم ذكاؤهم إلى إدراك مكنونات الرجل القروي. وسذاجة نفيسة أكدها لديه ابتسامها له وهي تحدثه، وأكدتها لديه كذلك الكيفية التي جعلت بها نهودها تكاد تشق أعلى الفستان. طبعاً رابح لم يكن يعرف أن النساء، نساء المدن، يستعملن رباطاً صلباً يحفظ نهودهن من الذبول والانكسار، ويضفي على أنوثتهن إغراء وجاذبية. ولكن محاولة إبراز ما يعبّر عن النضج الجنسي في المرأة تعتبره البادية دعوة ملحة إلى ما تستحي الأخلاق من فعله.

حاول رابح وهو عائد إلى الدار بقطيع الغنم أن يرى نفيسة من خلال النافذة أو الباب، دون أن يكون في محاولته ما يلفت نظر الأب أو الأخ الصغير. ولكن نفيسة لم تكن تفكر في الراعي حينئذ ولا كانت بصدد انتظاره. فاقترب من الكلب ومسح بيده على رأسه ليؤكد له ما بينهما من صداقة. ثم انصرف.

وكان يحس في ذلك المساء كأن رجليه لا تبغيان مغادرة دار ابن القاضي، فهما تندفعان ببطء إلى الأمام! كان يمشي وعيناه تجولان يميناً وشمالاً تتفقدان ما تعرف من مناظر: نفس الأشجار التي يعرفها ونفس الأماكن. سوف يعود في هذه الليلة إلى هذه الجهة عودة السارق الحذر. لن يقترب من الدار ماشياً مطمئناً، بل حابياً خاشياً. سوف يرى الأشجار أكواماً سوداء وفي سوادها سيجد ما يخيفه أو يخفي له شراً...

هناك أشياء كثيرة يمكن أن تخطر في بال من هو مقدم على فعل من هذا النوع، لكن خواطر رابح لم تكن كثيرة لحسن حظه أو لسوئه. ربما كان عدد الخلايا التي يتركب منها جهازه العقلي ضئيلاً جداً، لأن الحياة التي يحياها ليس فيها جديد أيضاً. فمن دار ابن القاضي إلى الجبال المطوقة للقرية حيث ترعى أغنامه مساحة ضيقة محدودة الآفاق، يستوعبها في لحظات، ويحيط بها في يسر. إذ يد العمران لم تضع فيها عموداً لكهرباء ولا جسراً لعابر. حتى الأصوات التي يملكها فضاء القرية وما حولها قليلة ومعروفة، فهناك أولاً صوت الريح الجنوبية التي يسمونها «القبلي» وهو صوت يشبه الغضب ولكن ما يوحي به ليس الثورة بل الحزن، العزلة، الخوف، الموت... وهناك صوت الرعد وهو صوت يشبه العنف والقوة والجبروت، يوحي لسامعه بالثورة على كل شيء، لكن الثورة على كل شيء لا تؤدي في النهاية إلا إلى الخراب. والرعد في سماء هذه القرية تكثر زيارته في أوقات الحصاد حيث تقترب آمال الناس من الوصول إلى تحققها فيقضي عليها بما يرسل على الغلال من رصاص (البرد) وأمطار... وهناك أصوات الحيوانات الداجنة المؤنسة، وهناك أصوات بعض الطيور التي لم يدفعها فقر القرية للجلاء عنها وفاء لموطنها... ثم هناك أصوات الذئاب...

فكل أصوات القرية إذن من طبيعتها وحياة أهلها. وإذا كانت الأصوات قليلة ليس فيها المصنوع فحياة السكان أيضاً ليس فيها ما يبتعد عن الطبيعة. صحيح أنك لا تستطيع أن تحصي حاجاتهم ولكنك تستطيع أن تعد أفكار معظمهم عدّاً ميسوراً وتستطيع أن تعد أفكار رابح عدّاً أيسر. فهو منذ أن نشأ كان راعياً للأغنام أبوه توفي وهو في المهد، لا يملك خياله عنه أي صورة! ومن أين تأتيه وأمه بكماء! هو الآن يبلغ الثانية والعشرين من العمر، سنوات متشابهة متكررة قضاها مع الأغنام. منحته عضلات وسواعد وحرمته مما سوى ذلك. معارفه تلقاها من رعاة مثله أو من بعض سكان القرية، معارف لا يمكن بحال أن تعقد حياته ولا خواطره فضلاً عن أن تحول بينه وبين شهواته. لكن رابحاً الذي حرمته الحياة مما ينمي عقله منحته جمالاً لم تستطع رثاثة أثوابه ولا خشونة معاشه إخفاءه. إذا ضحك ارتسمت على خديه حفرتان صغيرتان وارتسمت على نظراته أشعة تظهر وراءها عيناه السوداوان كأجمل ما تكون عليه العيون، لم يكن في وجهه جزء غير منسجم مع باقي الأجزاء. وكان لذلك مغتبطاً وكان محبوباً أيضاً. لا تعرف نفسه طريقاً للحزن بالرغم من يتمه. كان مسروراً دائماً وسروره تعبر عنه باستمرار ملامحه ونظراته وتعبر عنه الأنغام القروية التي يعزفها على نايه.

الكوخ الذي تسكنه أمه البكماء لا يبعد عن دار ابن القاضي أكثر من خمسمائة متر. يقع في ربوة مشرفة على بساتين القرية. في الواقع هذه البساتين عبارة عن بعض أشجار الفواكه كالتين والمشمش والخوخ والكروم. وشجر الدفلي النابت على حفافي مجرى الماء، أو الوادي كما يسميه السكان. وهذه البساتين ممتدة من أعلى إلى أسفل على طول مسافة حوالي كيلومترين، أي إلى منتهى ما يصل إليه الماء. وهكذا يقع كوخ أم رابح الراعي على ربوة في الجهة الغربية للوادي ودار ابن القاضي في الجهة الشرقية المقابلة.

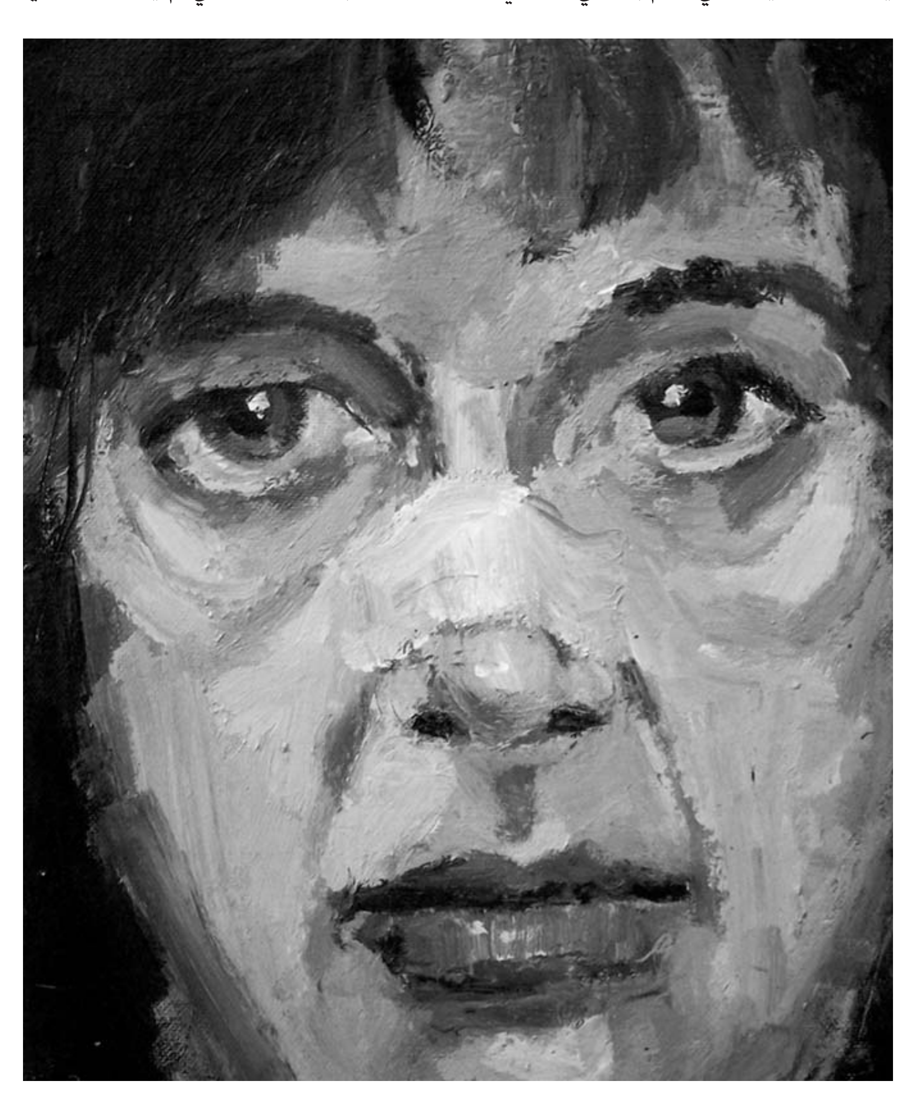
عندما رجع رابح في المساء إلى بيته لم يستطع البقاء داخله كعادته كان فكره بالضفة المقابلة، حيث نفيسة، تلك الفتاة التي يشبه بياض وجهها لون القمر. فخرج بعد أن أفهم أمه البكماء أنه يشعر بحرّ وأنه سيجلس على دكة الحجر الموجودة قرب الدار.

لم تكن الأفكار التي كانت تجري في ذهنه كثيرة بل كانت خاصة بالكيفية التي تمكنه من الوصول إلى غرفة نفيسة. ولكنها مع ذلك كانت تثير في نفسه شيئاً يشبه الحزن والقلق. أو بالأحرى كان ما يحس به قلقاً حزيناً غامضاً. وأخذ نايه وبدأ يعزف بصوت منخفض، لحناً لحزنه، ولحناً لحبه هذا الغريب! وكلما مرت اللحظات ازدادت ألحان نايه ارتفاعاً. وكانت أحياناً ترق حتى تصير هي الحزن نفسه وأحياناً ترتفع فتشتد فتعنف فإذا هي الثورة على حياته وحالته. ولو أنه لم يفكر كثيراً في حياته وحالته. وكانت أحياناً أخرى لا ترتفع حتى العنف ولا تنزل إلى الحزن ولكنها تبقى بين ذلك منطلقة في انسجام واسترسال وعذوبة كأنها الطمأنينة أو صلاة سماوية تتحدث عن مروج القرية إذا أزهرت وأشجارها إذا أثمرت ومائها إذا كثر فسال رقراقا، وأغنامها إذا أنجبت فأرسلت ثغاء يملأ الدنيا غبطة ورضاء.

وكان البدر مضيئاً بكل أجزائه المقابلة للأرض، يسخر من العيون التي تحلم به وهي لا تدري ما فيه. والقرية غافية بين أحضان الجبال. وسكانها نيام لكن نفيسة لم تستطع نوماً. تقلبت عشرات المرات في فراشها وأغمضت عينيها العشرات فلم يزدها التقلب والإغماض إلا أرقاً على أرق. أحست في هذه الليلة شيئاً جديداً شيئاً ربما أحسته في الماضي ولكنه لم يكن مثيراً إلى هذه الدرجة... إنها تحس دبيباً في ترائبها وألماً في أسفل صلبها وتشنجاً في أعلى فخذيها وجزءاً من بطنها! وهي لذلك تشعر بالحاجة إلى جسم غريب يلامس جسمها، أو أيد قوية تقبض بشدة على أماكن تؤلمها، أيد كأيدي الراعي... وبما أن لا سبيل إلى هذا الجسم الغريب فهي تتقلب ولكن التقلب زاد جهازها العصبي يقظة وتوتراً.

هناك لحظات توتر يمر بها الإنسان فتزيل عن حيوانيته كل القيود الأخلاقية وتنعدم فيها صلاحية المقاييس المنطقية وكل الاعتبارات المثالية والقيمية. لحظات تبقى فيها حيوانية الإنسان وحدها ذات الدفع المطلق. ولعلها هي النقطة التي ينشأ فيها كثير من الانحرافات السلوكية والشذوذات الجنسية، إن لم يكن جواب من الطرف المقابل، أو وجدت هناك قوة معارضة.

إن كثيراً من الحقائق الواقعة هي في بدايتها فروض ذهنية قابلة للوجود ولعدمه لكن الاستمرار في عرضها على الذهن وترديدها على التصور يبرزها في النهاية للوجود ويعطي لها شكلها الثابت. وهكذا الراعي لم يكن موجوداً في



ذهن نفيسة من قبل، وها هو الآن موجود في ذاته وموجود في ذهن نفيسة باعتباره الطرف المقابل لما تمليه الغريزة، ومن يدري قد يصل عقلها إلى التفكير فيه يوماً فيضفي عليه قيماً قد لا تكون فيه.

ومهما يكن الأمر فإن نفيسة الآن في فراشها وهي قد بلغت أعلى ذرى التشنج. كانت تشعر بالحرارة تزداد كلما مرت دقيقة في تلك الليلة الطويلة، بالرغم من أنها من ليالي الصيف، وبالرغم من أن الحرارة كلما تقدم الليل تنخفض! لكن الحرارة كانت لدى نفيسة نفسية فزيولوجية أكثر منها طقسية.

قامت من فراشها وأخذت تدور في القاعة الضيقة! لم تكن تفكر كانت في حاجة إلى حركة. ثم اتجهت إلى النافذة ففتحتها فوجدت القمر أفرغ كل ما فيه من نور على الأرض فإذا هي سكرى بالنور! وقفت فترة وجيزة أمام النافذة، ثم عادت إلى فراشها فخلعت بغضب قميص النوم ورمت به فوق المقعد الخشبي، وارتمت في الفراش عارية!

تسلل رابح من مجرى الوادي حيث يتكاثف ظل الأشجار، لأن أي طريق أخرى إلى دار ابن القاضي بدت له خطرة. فالقمر كاد يحيل ظلام تلك الليلة إلى نهار مشرق. وبالرغم من أنه كان يمشي مشية الحذر فإنه كان يخيل إليه أن خطاه تحدث دوياً يكفي لإيقاظ من قد يكون من سكان القرى نائماً في بستانه. فكان يمشي هنيهة ويتوقف أخرى. وكانت ضفادع الوادي تملأ الجهة غناء متشابهاً ركيكاً يبعث في النفس رهبة واشمئزازاً. وكان كلما قصرت المسافة التي تفصل بينه وبين دار ابن القاضي كلما زاد شعوره بالرهبة مما هو مقدم عليه. لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة تسلله إلى الأمام، حتى لم يبق بينه وبين الدار إلا خطى قليلة فتوقف متستراً بشجرة تين، تقع في مكان يستطيع منه أن يرى كل شيء. وأخذ يحزر كل ما حول الدار من أشجار وأحجار فلم يبد له هناك ما لا يعرفه. وكان الكلب ينبح نباحاً متقطعاً متكاسلاً، مما أكد لرابح أنه لم يحسب به بعد. وبدون أن يشعر التفت إلى الربوة الواقعة في الضفة المقابلة حيث الكوخ الذي تنام فيه أمه فرآه يبدو أسود رغم ضوء القمر، لا يشبه بحال دار ابن القاضي هاته التي أمامه ذات الغرف الكثيرة والقرميد الأحمر الذي كان يراه في تلك اللحظة أصفر فاقعاً مما شرب من أشعة صبها عليه القمر. وأحس بانقباض لم يدر سببه ولا حاول أن يفكر فيه.

كانت الأخطار المحدقة بمسعاه لا تعد، ولكن رابحاً لم يكن يفكر فيها كانت حياته الجنسية هي الموجهة لسلوكه، تطغى على ما سواها. ثم أن نفيسة كانت جميلة زبيضاء كالقمرس! فتاة أينعت وطابت ثمارها. رآها تضحك له وهي لا تدري أن الضحك للرجال إغراء. فكر فيما يمكن أن يجيبها به إذا سألته عن هذه المغامرة الخطيرة ولكن الأجوبة التي خطرت له لم تقنعه. لكن الشيء الأكيد أن نفيسة سوف تقدر فيه هذه الجرأة التي لا شك أن سكان البادية وحدهم يتميزون بها. وسوف تنظر إليه بعد اليوم بإكبار وإعجاب، وسوف تمتلئ حياتها بحياته... مرت بذهنه كل هذه الخواطر، وانفتحت نفسه لكل الآمال العذبة الغامضة. ولو كان الناي معه، ولم يكن بهذا المكان القريب من الدار لأخذه وعزف أرق الألحان لهذه الآمال الغامضة. لكن الناي تركه في البيت، وهو الآن في مكان لا يتسع لحرية الغناء والعزف...

وللمرة الأخيرة رجع إلى ما حول الدار من أشجار وأحجار يعدها. ثم تحرك في حذر، متلمساً طريقه... ووقعت رجله على عود فتكسر وأحدث صوتاً أذهب عن الكلب غفوته فانطلق بكل تصميم نحو مكان الصوت في نباح شديد. ولما اقترب من الراعي عرفه فزال عنه غضبه وأخذ يرحب بذيله ويدور حوله، يمسح رأسه على ساق الراعي مرة ويشدّ قميصه مرة أخرى... وحاول رابح أن يتخلص منه فأمره بالانصراف فامتنع فأخذ حجراً وهدده به فهرب بضع خطوات ثم عاد فأعاد تهديده له فلم ينفع فيه ذلك فرماه بالحجر فانصرف باكياً من ألم الضربة في وعوعة تشبه العتاب والخيبة.

وصل رابح إلى النافذة الخارجية لغرفة نفيسة فوجدها مغلقة. وحاول أن يفتحها فلم يستطع، كانت مشدودة بذراع حديدية من الداخل، فغضب وأحس أن مهمته بدأت تتعقد. فكر فيما ينبغي أن يفعله: هل يدق باب النافذة دقاً خفيفاً لعلها تستيقظ فتفتح له؟ ولكنها لم تكن معه على موعد. ثم من يدري لعلها تظن أن هناك سارقاً فتصيح... أما الباب الخارجي فهو يعرف أنه مغلق بعمود ضخم مسند عليه من الداخل. وإذن فلم يبق إلا سور الدار. يجب أن يقتحمه ويحاول أن يدخل من الباب، فمهما كان ذلك خطيراً فهو أقل خطراً من الدق...

وقف لحظات مطرقاً حائراً وكاد يغير رأيه نهائياً وينصرف ولكنه لم يستطع الانصراف بدون أن يحقق رغبته. وقرر أن يقتحم السور مهما كلفه ذلك. ابتعد عن النافذة وكان يحس أن نبضات قلبه أخذت تسرع وأن رجليه بدأتا ترتخيان وتذهب عنهما تلك الصلابة التي كانت تكمن فيهما. ولما وصل إلى السور لم يجد به ظلاً. كان القمر قد توسط السماء. فلم تبد له مغامرة اقتحامه هينة. ورجع إلى مكان ظليل حيث تلتقي زاوية غرفة نفيسة مع زاوية غرفة أخرى. واكتشف أن الدخول من هنا أيسر بكثير من اقتحام السور. فاستجمع كل جرأته وتسلق الحائط. ولما استوى فوق السقف رأى وسط الدار هادئاً عادياً. لبث هناك لحظات مفكراً في الهبوط. هل يقفز أم يزيل بعض القرميدات الواقعة على حائط الغرفة ليتمكن من النزل بسهولة؟ فاختار إزالة القرميد وبمجرد أن وقعت رجلاه على الأرض أسرع إلى الباب الخارجي فأزال العمود المسند عليه ليتمكن من الخروج بسرعة إن حدث ما يدعو إلى السرعة. ثم عاد إلى باب غرفة نفيسة الذي كان مغلقاً. ولحسن حظه أن الباب لم يكن مغلقاً بقفل فحالما دفعه قليلاً انفتح. فدخل فاتجه إلى النافذة ففتحها. فعاد إلى الباب فأغلقه. ثم وقف قليلاً يستعيد أنفاسه. لم يشعر في حياته بتعب وإرهاق أبلغ مما يشعر به الآن.

كانت نفيسة نائمة نوماً عميقاً. لم يوقظها فتح الباب ولا غلقه ولا فتح النافذة. والواقع أن رابحاً كان في حركاته حذراً إلى أقصى حدّ. لم تكن الغرفة مضيئة ولا مظلمة ولكنها كانت إلى الإظلام أقرب منها إلى النور. رأى رابح السرير الذي تنام فوقه نفيسة فاقترب منه فإذا هي عارية! فأحسّ كأن شيئاً عنيفاً هزّ كل كيانه. وأحس أن كل خلايا جهازه العصبي بدأت تشتغل. لأول مرة في حياته يرى فتاة عارية! «كم هي جميلة! جميلة كالشهد!» بدا له أن يرتمي بجسمه عليها ولكنه في آخر لحظة عدل عن ذلك وفكر في أن يوقظها من نومها: فاقترب من السرير حتى كاد يلتصق به. ووضع يده على فمها فإذا هي تقفز مذعورة! فقال لها بلطف:

– «لا تخافي أنا رابح! لا تخافي...»

جذبت بأقصى ما استطاعت من سرعة غطاءها بيد ودفعته عنها بأخرى. وكانت من شدة البغتة أحست كأن صاعقة نزلت عليها. وقالت في اختناق:

– «اخرج يا مجرم!»

فردّ عليها مذهولاً:

– «أنا رابح، الراعي... لا تخافي...»

– «اخرج يا مجرم! اخرج وإلاّ صرخت».

– «لكن...»

تلعثم لسانه، لم يجد إلى الحركة سبيلاً... فكررت قائلة بسخط ومرارة:

– «اخرج من هنا أيها المجرم! أيها القذر، أيها الراعي القذر!»

استولت على رابح الحيرة وأحس كأن ماء بارداً يسيل في عروقه وعلى جسمه. وأحس كأن طعنة بالغة سددت إلى وسط قلبه وقد سمع «أيها الراعي القذر!» ولولا شبابه وما يكمن فيه من قوة وجهد لوقع على الأرض.

– «اخرج أيها الراعي القذر!»

لم تكن الغرفة مظلمة كثيراً ولكنها ها هي ذي تصير ظلاماً حالكاً، كل ما فيها يشعر بالاختناق والحسرة.

خرج رابح من النافذة وإذ رآه الكلب أقبل مسرعاً نحوه يمسح رأسه على ساقيه لم يكن في هذه المرة حذراً ولا خائفاً ولا شعر بالكلب. كان يمشي مطأطئاً رأسه حزيناً، لم ير شيئاً كانت الأرض سوداء أمامه. كان يسير بدون قصد. وكانت الكلمة المؤلمة تدوي في سمعه: «أخرج أيها الراعي القذر».

كان القمر قد مال إلى الجهة الغربية، وعاد الظلام من جديد إلى الجهة المقابلة لدار ابن القاضي، لكن رابحاً لم يكن في حاجة إلى نور لمواصلة طريقه إلى بيته. كان عائداً إليه بصورة عفوية. وحتى لو كانت طريقه مقمرة لما رآها، كان الظلام يملأ نفسه وعينيه وكان يحس أكثر فأكثر بإرهاق شديد. وخيل إليه أنه لن يستطيع العودة إلى الدار





وخصوصاً أن الأرض لم تكن مستوية في هذه الجهة فكانت الطريق بمثابة مرقى. نظر إلى الربوة فكانت تبدو ملتصقة بالسماء، بعيدة. ولم يعد يقوى على المشي فجلس واتجه بصره بدون أن يشعر نحو دار ابن القاضي فبدت له من بعيد على غير ما تعود أن يراها... كأنما انتقلت من مكانها المستوي الجميل إلى مكان آخر بعيد! وأحس بنوع من الحقد عليها وعلى ساكنيها، وعلى كل ما فيها وما حولها. كان في تلك اللحظة يود لو أن زلزالاً عنيفاً دكها دكاً، ومحاها من الدنيا. كل ما كان يربط بينه وبينها في الماضي أخذ الآن يصير حواجز. حتى الأغنام البريئة تخيلها صارت خنازير. فترة من الوقت قضاها في خيالات وتصورات انتهت به إلى نوبة من الغضب:

«لماذا أنا جالس هنا، أنظر إلى الدار هكذا نظر العاجز المسكين؟ أليس في صدري قلب يفرق بين العدو والصديق؟ ألست رجلاً؟».

وقام بعنف ومشى، فإذا العقبة صارت هبوطاً تحت رجليه، وإذا الكوخ صار أجمل دار، وإذا أمه البكماء التي لم يكن يفكر فيها كثيراً أخذ وجودها يملأ وجوده... أشياء غامضة كانت تجري في نفسه دفعته إلى القول بصوت مرتفع:

– «أمي أجمل امرأة في الدنيا! بكماء ولكنها تحسن التعبير أحسن من كل مخلوق».

وطلع العقبة هاذياً شاخراً كالقطار. ولما وصل إلى دكة الحجر القريبة من البيت حيث يجلس عادة، جلس. وكان قد ترك الناي هناك فأخذه وتأمّل السماء ملياً، وتأمل قمم الجبال البعيدة التي تحمل الأفق الشرقي على رؤوسها، وكانت أشعة الفجر قد بدأت تبتسم لها في حياء وتقبلها بلطف. ورفع الناي إلى فمه وراح يعزف ويعزف وعيناه ملتصقتان بقمم الجبال. وشعر لأول مرة وهو يعزف أن الثورة لم تنته! وأخذت الألحان تخرج من الناي حادة قوية ثائرة!...

والثورة التي كانت في رأسه، وفي نَفَسه الذي يملأ جوف الناي، وفي الألحان التي تنطلق منه، كانت ثورة سخط، منبعها العاطفة لا العقل. فهو كان يحس أنه قادر على هدم دار ابن القاضي مثلاً وكل الدور التي تشابهها في القرية، ولكنه لم يكن أبداً يتصور أنه قادر على بناء دار مكان الكوخ الذي يسكنه وأمه، فضلاً عن المشاركة في بناء دور مكان أكواخ غيره.

وأياً كان نوع الثورة التي كانت تعتمل في نفسه فإن القرية ساعتئذ كانت تحيا آخر لحظات الليل. فقد كانت أصوات الديوك معلنة ذلك في كل بيت. ولما انتهى رابح من العزف كان الصبح قد تنفس في القرية بأرقّ الأنسام. وأخذ من بعيد يبدو أمام تلك الدار أو الأخرى بعض من يستقبلون يومهم بالصلاة.

ولاحظ رابح عابد بن القاضي خارجاً من داره متجهاً نحو مصلاه، فقال مخاطباً إياه في نفسه:

«صل ما شئت فالغنم لن أسرح بها اليوم ولا بعد اليوم...»

وكان رابح في العادة يصل إلى دار ابن القاضي قبل أن يتم هذا صلاته. فينتظره حتى يتمها ثم يتحدثان عن حالة الأغنام وعن المكان الذي ينوي أن يقضي يومه به إلى آخر ما يتعلق بمهمة الرعي والراعي...

دخل رابح إلى البيت فوجد أمه بصدد إعداد القهوة في مغلاة كان قد صنعها هو من إحدى علب المصبرات. وإذ رأته حركت يدها نحو سائلة إياه إشارة: أين قضى ليلته؟ فأومأ إليها مجيباً أنه نام لدى دكة الحجر. وكان أحياناً ينام هناك. أتمت إعداد القهوة فناولته فنجاناً من فخار قديم، من الفناجين التي أعطته إياها العجوز رحمة، مقابل مساعدته لها ذات يوم... تأمل الفنجان لحظات ثم شرب ما فيه وخرج، دون أن يفهم أمه فيما هو مقدم عليه ولم تكن هي تدري أن ابنها قد قرر التخلي عن رعي أغنام ابن القاضي، انتقاماً لما وقع له مع نفيسة... ولحسن حظها أنها لا تدري ذلك ولن تدريه في يوم من الأيام.

عندما أتمّ عابد بن القاضي صلاته التفت إلى الطريق الذي يسلكه رابح عادة فلم يره... ثم نظر إلى الكوخ ملياً لعله يرى الراعي خارجاً ولكن هذا كان قد خرج فعلم أنه إذ لم يأت في وقته المعتاد فلن يأتي وأن عليه أن يجد من يرعى غنمه في ذلك اليوم ممن يعرف من سكان القرية ذوي الأغنام. ولعل أبلغ مميزات عابد بن القاضي سعة باله، وقدرته على السكوت. فهو سواء كان راضياً أم ساخطاً فلن يدع سخطه ولا رضاه يمس هدوءه واتزانه. كل من عمل عنده يقدر فيه ذلك. فإذا تخلف الراعي يوماً عن عمله فليس هناك ما يدعو لأن يقيم القيامة. قد يكون تعب وقد يكون سهر فلم يفق من نومه. وقد يكون ركب رأسه لسبب أو لغير سبب فلم يأت... فمهما كان الأمر فإن لكل معسرة ميسرة، وسعة البال أليق بصاحب المال...

قام من مصلاه واتجه إلى الدار فأمر زوجه أن توقظ ابنه عبد القادر ليذهب إلى دار ابن الأطرش ويطلب منهم أن يأخذ راعيهم غنمه مع غنمهم للرعي في ذلك اليوم، فتساءلت خيرة قائلة:

– «ما للراعي لم يأت اليوم؟ لعله مريض!»

فأجاب عابد:

– «لا أظن فلم ألاحظ عليه مساء الأمس علائم مرض...»

فقالت:

– «أو ربما قد تكون أمه مريضة! لو أرسلت عبد القادر عندما يعود من دار ابن الأطرش ليطلع على الأمر...»

فأجاب وهو يستعد للخروج:

– «أرسليه إن شئت. أنا ذاهب إلى الدشرة».

خرج عابد بن القاضي ذاهباً إلى الدشرة التي تبعد عن داره نحو الكيلومتر، حيث مقهى القرية، وبعض الدكاكين، والجامع... والدشرة هي ملتقى كل السكان سواء من كانت بيوتهم هناك أو من يسكنون متفرقين بعيداً عنها.

الأحيان التي تقود رابحاً إلى مقهى «الدشرة» قليلة. فهو راعٍ والراعي لا عطلة له. كل الأعمال في القرية تسمح لأصحابها بعطل تبلغ الشهور، بينما مهنة الراعي هي مهنة العمل الدائم. ليس رابح وحده الذي لا يفقه معنى العطلة بل كل الرعاة أمثاله في هذه الأرض الريفية الجميلة. لو كان سكان القرية تعودوا منذ صغرهم كالرعاة على الحياة مع أرضهم في كل الفصول التي تمرّ بها لتبدّل فقرهم بسعة من العيش، ولتبدلت أرضهم من اقفرارها إلى خصب لا ينتهي...

دخل رابح إلى المقهى ودخوله أثار فضول من فيها، فلم يكد يتخذ له مقعداً على الحصير حتى سأله أحدهم:

– «والغنم يا رابح؟»

وقال الآخر:

– «لعله تخاصم مع صاحبه. يعني صاحب الغنم».

وقال الثالث ساخراً:

– «رابح كبر ولم يعد يصلح أن يبقى راعياً».

وقال الرابع معارضاً:

– «رابح عاقل. لا يخاصم ولا يتكبر على الرعي».

وتكلم الخامس ناهياً من سبقه:

– «دعوا الرجل وشأنه. أذئب دخل السوق؟»

وفجأة صرخ أحد لاعبي «الدومينو» في وجه مقابله:

– «أعطيت لك «اللاز» جاوبني! كيف... تقتلني هكذا؟ لعبت المرة الأولى «اللاز» ثم أخرجته ثانية وضربت فوق المنضدة... افهمني... إذا أردت أن تتعلم اللعب، افهم لعبي... وللمرة الثالثة ألعب «اللاز» تقتلني. عجيب قتلي يا ناس! قتلني مع أني ضربت فوق المنضدة بشدة ليفهم... العب وحدك الآن... هذا اللعب، إذا لم تفهم صاحبك فلا ينبغي أن تلعب».

ولما رأى القهواجي أن اللاعب أطال في تأنيب صاحبه. قال:

– «أدفع أنا ثمن هذا الدور من اللعب ويكفي صراخاً...»

فأجاب اللاعب متشكياً:

– «أنظر يا عمي الحاج رحم الله والديك، انظر، ها هي ذي الأحجار التي بقيت في يدي. وها هو اللعب أمامك... إنه قتلني ومع أني لعبت «اللاز» للمرة الثالثة وضربت بيدي فوق المنضدة ليفهم... أرأيت؟»

فأجاب اللاعب المقابل محدثاً القهواجي:

– «هو هكذا دائماً... في كل مرة يضع حجرة يضرب فوق المنضدة ويصرخ... كيف تفهم يا عمي الحاج من يصرخ دائماً؟ رحم الله والديك».

فقال القهواجي ناصحاً كل اللاعبين في لهجة المدبر الحكيم:

– «الرأس هو الذي يلعب لا اليدان... كلكم لا تحسنون اللعب. لو لعبتم مع ماهر لما استطعتم ربح دور. أين أنتم من اللعب يا أبنائي؟...»

ثم اتجه القهواجي إلى رابح فسأله:

– «ماذا تريد أن أقدم لك قهوة أم كأساً من شاي؟»

فأجاب رابح في حياء:

– كيف كيف يا عمي الحاج!

فقال القهواجي:

– «أعطي لك شاياً لم تعرفه الصحراء ولا المغرب!»

لم تمض فترة طويلة على رابح منذ أن دخل المقهى ولكنه مع ذلك أحسن أن هذا الجو المظلم الخانق لا يلائم طبيعته. فبمجرد أن أتم شرب كأسه وقف متأهباً للخروج وإذا بعابد بن القاضي يملأ باب المقهى! ظن رابح أن الرجل سيكلمه فشعر بحرج واضطراب لكن ابن القاضي إذ رآه خارجاً دعاه قائلاً في لطف:

– «انتظر اشرب قهوة ثم انصرف إن شئت».

فأجاب رابح في خجل:

– «شكراً، شربت».

خرج رابح إلى ساحة المقهى فوقف أمام صفاة لا يدري ما يعمل وشردت منه نظرة نحو دار ابن القاضي التي ترى من هناك فرأى الغنم خارجة، يسوقها عبد القادر. ورأى في الجهة الشرقية القريبة من الدار غنماً أخرى فعرف أنها لابن الأطرش. فمر بذهنه تساؤل: «ترى أين سيتجه بالغنم اليوم؟» وشعر بانقباض وهو يرى الغنم تبتعد عن الدار بدونه. وكان أحد السكان جالساً قربه بصدد نسج قفة من حلفاء فسأله:

– «بطلت السرح يا رابح؟»

فأجاب:

– «بطلت».

فأردف الرجل سائلاً:

– «وماذا تنوي أن تعمل؟»

فقال:

– «لست أدري، سوف أري».

فقال الرجل في نصح:

– «كان من حقك أن تفكر فيما تعمله قبل أن تبطل. إنك لا تستطيع أن تجد أي عمل هنا».

فأجاب رابح بدون أن يشعر:

– «إن لم أجد هنا عملاً فأذهب إلى فرنسا».

فقال في ابتسام ينمّ عن السخرية:

– «فرنسا... أو تظن أن العمل في فرنسا سهل؟ إنك مخطئ يا بني. لو رأيت أنا ذلك ممكناً لما بقيت

هكذا كل يوم مع شوك الحلفاء... إن القوانين تغيرت. كانوا في الماضي يكرهوننا أما بعد الاستقلال فصاروا يودون لنا الفناء. فرنسا لم يعد لنا فيها مجال للعمل».

فقال رابح في سذاجة:

– «آلاف الجزائريين يعملون في فرنسا... من قريتنا فقط ذهب أكثر من مائة شخص».

فأجاب الرجل:

– «ذهبوا... ولكن متى؟ أكثرهم كانوا هناك قبل الاستقلال. قلت لك إن القوانين تغيرت».

فتساءل رابح في سذاجته البريئة:

– «أيّ القوانين؟...»

فأجاب الرجل:

– «أي القوانين؟ كل القوانين... كل دولة لها قوانينها. في الماضي مثلاً كانت عملتنا الفرنك والآن صار لنا الدينار عملة. الدول تتغير والقوانين كذلك».

لم يكن من السهل على رابح أن يواصل الحديث مع الرجل... الفرنك... الدينار... الدول والقوانين... مسائل لم يصل بعد خياله إلى تصورها. وكان يعتقد أن محدثه يعرف الكثير من هذه المسائل المعقدة ولذلك بدا له أن يغيّر مجرى الحديث فقال:

– «إذا لم أستطع أن أذهب إلى فرنسا فسأبحث عن عمل هنا بالجزائر».

– «بالجزائر!... تبحث عن عمل بالجزائر... العمل الوحيد الذي تجده بالجزائر هو ذاك الذي تركته يا بني. لو فكرت لبقيت في مكانك حتى تتيسر الأمور».

أحس رابح أن الأرض تزداد ضيقاً أمامه كلما تكلم الرجل صانع القفاف وقال في شيء من التحدي:

– «لن أسرح... إن لم أجد أي عمل أبيع الحطب».

فقال الرجل ضاحكاً:

– «الحطب... تبيع الحطب! وحارس الغابة... أفكرت فيه؟»

نظر رابح إلى هذا الرجل الذي يريد أن يجعل من الأرض الواسعة سجناً ضيقاً يماثل قفته وقال له معرضاً بعجزه:

– «أتظن أن الناس كلهم مثلك لا تقع أيديهم مما تنبت الأرض إلا على الشوك؟»

تأمل الرجل لحظات ثم أجاب:

– «كل شيء مقدر لصاحبه يا بني. لعلك على صواب».

بعد فترة من الصمت سأل رابح الرجل عن مردود صناعته:

– «بكم تبيع القفة؟»

فقال الرجل:

– «أثمانها تختلف باختلاف أحجامها».

وكان يبدو عليه عدم رغبته في الحديث فتركه رابح وشأنه. وبقي واقفاً أمام الصفاة حائراً. لا يدري ماذا يعمل ولا أين يتجه.

وكان قد رأى العجوز رحمة منذ مدة عائدة من المحفر، سالكة الطريق الذي تسلكه دائماً فتابع مشيها الوئيد حتى اختفت عن عينيه.

وكانت عندئذ قد وصلت إلى نقطة أخذت الطريق فيها تنحدر، وأحست باشتداد ثقل التراب على ظهرها، وخيل إليها أن نصفها الأعلى يسبق نصفها الأسفل. واشتد ثقل التراب ولم تبق لها قوة على تحريك رجليها. وتمتمت بحزن قائلة في نفسها:

– «كبرت... كبرت وأخشى أن أموت قبل صنع الأواني...»

واستجمعت قواها وحاولت المضي رويداً، ولكنها كانت في كل خطوة تشعر أن التراب الذي تحمله على ظهرها لصنع الأواني الفخارية يزيد ثقله باستمرار، وأرسلت آهة حزينة ناحبة، ولسانها يتحرك بكلمات متقطعة:

– «كنت أقطع هذه الطريق جرياً، وها أنا ذي الآن... لكني كبرت، ماذا أفعل؟»

وخطت خطوة أخرى. وازداد ثقل التراب بازدياد انحدار الطريق. وسرت في ركبتيها رعشة شديدة. وتمتمت مرة أخرى في حيرة:

– «ماذا أفعل الآن؟ لن أستطيع المضي هكذا!...»

كانت قفة التراب التي تحملها على ظهرها مشدودة بحبل وثيق. وكانت قد وصلت إلى نقطة ملتوية، أقل حركة تفقدها ما بقي لها من توازن. وحاولت أن تحل الحبل وتضع قفة التراب على الأرض لتستريح قليلاً، ولكنها ما أن تحركت لتحل أول عقدة حتى تدحرجت بقفتها إلى منتهى الحدر. تدحرجاً مؤلماً!

لم تصرخ ولم تستغث فقد كان الحبل ملتوياً على عنقها. لم تتألم ولم ترسل زفرة، فما أن سقطت حتى أسرع بها الانحدار وقفة التراب إلى أسفل.

لكنها بالرغم من شدة ألم الطيحة لم تغب عن ذهنها أواني الفخار الجديدة التي تعتزم صنعها. رأتها في صورة حلم، أو رؤيا نفسية عابرة.. رأتها منطلقة من الفرن كباقات حمراء من لهب، صاعدة إلى أعلى... إلى أعلى باستمرار، في سرعة تفوق التقديرات!

وكان رابح ما يزال واقفاً أمام الصفاة حائراً ذاهلاً. أما صانع القفاف فكان من جهته منهمكاً في صناعته وأفكاره. وتذكر رابح العجوز وعيناه تجولان فيما امتدّ أمامه من ربى وهضاب ومرتفعات فتساءل في نفسه:

– «ما لها أبطأت؟ لعلها لم تستطع صعود العقبة، فتوقفت تستريح».

قال هذا وكان يشعر بقلق غامض، لا يتصور كل دواعيه. وكان النهار ما يزال في أوله ولكن الحرّ كان خانقاً، وأشعة الشمس شهباء حادة، تنفذ حرارتها إلى أعمق أعماق النفس. وتحرك من مكانه تقوده رجلاه لا إلى غاية. كان حائراً أين يذهب، هل يعود إلى البيت أم يذهب إلى الوادي حيث ظل البساتين؟ وخطا خطوات وئيدة متعثرة، تصور عدم القصد وفقدان الغاية. وانتهت به خطواته تلك المتعثرة إلى مكان مرتفع يشرف على معظم الجهات المنخفضة. وإذا به يشاهد بعيداً في مكان يشبه الخندق العجوز رحمة مرتمية على الأرض فخفق قلبه وبدون أن يفكر انحدر كالسهم...

صعق من المشهد المريع! كان رأس العجوز في القفة، ونصف جسمها عارياً والحبل مشدود على ذراعيها وعنقها. وظن بادئ الأمر أنها قد قضت نحبها. ولكنه حينما قطع الحبل بموسى كان معه لاحظ ارتعاش صدرها قليلاً، وخفقان شفتها السفلى، ففرح أن لم تفارقها الحياة! وناداها:

– «عمتي رحمة! عمتي رحمة!»

لم تجبه العجوز بكلمة، ففكر وقد رفع رأسه ينظر إلى المكان الذي تدحرجت منه:

– «لا شك أنها تدحرجت من هناك. مسكينة! يجب أن أحملها إلى بيتها. لحسن حظها أن الجهة التي تدحرجت فيها لا حجر بها وإلا للاقت حتفها».

وضع العجوز على ظهره وهي في حالة إغماء، ورفع القفة الفارغة. وكانت العجوز خفيفة كالقفص الفارغ. ومرت بذهنه وهو ماش ذكريات بعض أيام الشتاء عندما تموت له شاة فيحملها على ظهره عائداً بها إلى دار ابن القاضي، فازداد سخطه وعزمه على ترك مهنة الراعي:

– «لن أسرح بعد اليوم بغنم أحد».

وشعر وهو طالع العقبة أن حياته ثقيلة خانقة جافة كالشاة الميتة، أو كهذه الحرارة التي يحسها تنفذ إلى أعماق نفسه، وإلى داخل عظامه...

دفع الباب الأسود الغليظ برجله فانفرجت أمامه قاعة بيت، زواياها مظلمة، انبثت فوقها أوانٍ فخارية جديدة وقديمة ومتعددة منها الجاهز للاستعمال ومنها ما يزال في الطور الأول من التهيئة، ومنها ما يزال طيناً. دخل ووضع العجوز فوق حصير من حلفاء كان مطروحاً في مكان مقابل للباب. ثم أخذ غطاء خشناً من صوف رآه معلقاً في وتد بالحائط فطرح نصفه فوق الحصير، وثنى نصفه الآخر في شكل وسادة.

ووضع العجوز فوقه. ونظر إلى وجهها فوجده يتصبب عرقاً، وعينيها مسبلتين، وأنفاسها ترتفع وتنخفض في صدرها، عميقة طويلة كالمستغرق في نوم هادئ. وفكر رابح أن العجوز لم يصب أي عضو من أعضائها بكسر، وإلا لما ترك ألمه إغماءها يطول. وخشي أن يكون هذا الإغماء بسبب إصابة في رأسها. والتفت يميناً وشمالاً كأنه يفتش عن شيء، أو يبحث عن مساعد. ولكن البيت لم يكن به إلا الفخار. ثم أرجع بصره إلى العجوز فلاحظ أن وجهها قد أخذت تعلوه حمرة خفيفة، وأن العرق بدأ يجف منه فناداها:

– «عمتي رحمة! عمتي رحمة»!

فأجابت العجوز بصوت متقطع وقد أخذت جفونها ترتفع قليلاً:

– «نعم!»

–«سعمتي رحمة! لا باس؟»

– «أين أنا؟»

– «إنك بدارك، عمتي رحمة! لا باس؟»

ومدت يدها كأنها تبحث عن شيء، فمسكها رابح ونادى:

– «عمتي رحمة! لا باس؟»

– «لا باس. أحس بالتهاب في حلقي وصدري».

ففكر رابح أن التواء الحبل عليها هو الذي سبب لها هذا الالتهاب وناداها:

– «عمتي رحمة! ألا تحبين أن أناولك ماء؟»

– «نعم، نعم... أود أن أشرب ماء بارداً»

أخذ آنية من طين وخرج إلى زالمراحس (فناء الدار) حيث قربة الماء معلقة في مكان ظليل، وإذا به وهو يحل شريط الحلفاء المربوط به فم القربة لاحظ نقطتين لامعتين لمعاناً مخضراً تحت حجر كبير، أسفل قربة الماء، فأحسّ برعشة تسري في عموده الفقري ومفاصله وقال:

– «ثعبان! ثعبان يتبرد هنا أو ضفدعة! يجب أن أسرع فأناول العجوز الماء ثم أعود إليه».

وضع ذراعه اليسرى تحت كتفي العجوز فرفعها قليلاً وناولها الماء بيمناه. كانت جرعات الماء تنزل في صدر العجوز إلى بطنها مصوتة مسموعة.

ففكر رابح:

– «مسكينة، لم تتناول طعاماً! الجوع هو الذي سبب لها الإغماء لا السقوط».

وسألها قائلاً:

– «كيف تحسين نفسك الآن؟»

– «الحمد لله! رابح، أنت رابح؟»

– «نعم».

– «لن أنسى لك هذا أبداً».

– «لا تفكري في كل هذا يا عمة. قولي، ألست جائعة؟»

– «لا، لست جائعة يا ولدي».

– «ألا تريدين شيئاً؟»

– «لا شيء أريد الآن يا ولدي. إنني لا بأس علي».

– «إنني رأيت ثعباناً تحت حجر قريب من قربة الماء، سأذهب لأقتله وأعود».

– «هو... ثعبان! رأيته مرات هناك، ولم أستطع قتله: خذ العصا يا رابح!»

وكأن ذكر الثعبان أعاد إليها شيئاً من نشاط وحيوية. وأردفت قائلة:

– «اضربه على نصفه وإلا فلا تتمكن منه».

أخذ رابح عصا وذهب إلى المكان فوجده ما زال هناك فقرب منه العصا فحرك هذا رأسه قليلاً دون أن يختفي أو يغادر المكان. وبقي ينظر إلى رابح فلمسه بالعصا فوق رأسه فرفع رأسه وفتح فمه وأراد أن ينهش العصا فجذبها رابح، فأخذ الثعبان يلقلق لسانه لقلقة سريعة، واتقدت عيناه غضباً. تعجب رابح إذ رآه لم يفر، بل لم يبد حتى محاولة للفرار! وفكر: «لا شك أن جوفه ممتلئ» قد يكون ابتلع فيراناً أو ضفادع... ثم داعبه بالعصا برهة من الوقت، وكان كلما لمسته العصا فتح فمه وحاول نهشها. وأخيراً تأكد رابح أن الثعبان غير قادر على الحركة مما في بطنه فأزاح الحجر فإذا به يتحرك حركة ثقيلة جداً محاولاً الفرار. كان جوفه مكتظاً حتى صار في غلظ ساق الرجل، فقتله وعاد إلى العجوز فوجدها جالسة، وقد زال عنها تماماً الإغماء وعادت إليها الحياة... الحياة التي كادت تفارقها لأبسط سبب!

وقالت إلى رابح:

– «اجلس يا ولدي، لقد أنقذتني من الموت».

واستطردت قائلة:

– «لا أخاف الموت ولكني لا أحبه. أرأيت؟ لو متّ لبقيت هذه الأواني بلا إتمام».

جلس رابح وحاولت العجوز القيام فقال لها:

– «ابقي مستريحة، إذا أردت شيئاً أناوله لك».

فقالت:

– «إنني لا بأس علي الآن. يجب أن أقوم... لأنظم هذه الأواني المبثوثة في كل مكان».

فقال لها ناصحاً:

– «دعيها الآن يجب أن تستريحي».

فأكدت له وهي قائمة:

– «انني لا أحس أي ألم ما عدا كتفي ورقبتي. سأضع ضمادة من الخباز في المساء، قبل أن أنام».

وأخذت الأواني الطينية التي ما تزال في الطور الأول من التهيئة فوضعتها في مكان منعزل من قاعة البيت. ثم أخذت كوباً من الماء وغسلت يديها ووجهها. وخطت خطوات نحو زاوية البيت، حيث «مزود» الدقيق فجاءت به إلى مكان مضيء من القاعدة. فأدرك رابح أنها تريد إعداد طعام له فرجاها بإلحاح أن لا تفعل. ولكنها أكدت مصممة أن لا بد من ذلك، وأنها لا تشكو أي شيء يعيقها عن العمل. وأخذت صحفة من طين فوضعت فيها دقيقاً، ثم أعادت جلد الدقيق إلى مكانه. وراحت تبحث عن قدر صغيرة من طين أيضاً لا تستعملها إلا نادراً فأخذتها وغسلتها. ثم أوقدت النار وقربت الأثافي من الموقد في وضع مثلث ووضعت القدر عليها. ثم اتجهت إلى الصندوق الأسود حيث تخزن كل ما هو ثمين عندها. فأخرجت منه جرة سمن صغيرة وأربع بيضات. ورجعت إلى مكانها قرب الموقد فجلست وفتحت الجرة وأخذت ملعقة من خشب ووضعت ثلاث ملاعق سمن في القدر، ثم وضعت الدقيق فيها وقليلاً من الملح. وكانت نار الموقد معتدلة ما عدا عوداً واحداً أخذ يتأجج فأزاحته لئلا يحترق الدقيق الذي وضعته في القدر قبل نضوجه وأخذت البيضات الأربع فغسلتها، ثم راحت تكسر في القدر البيضة بعد الأخرى. وبعد ذلك أخذت الملعقة وشرعت تحرك البيض والدقيق تحريكاً متوانياً وقالت بابتسام إلى رابح كأنها تعتذر:

– «لست أدري كيف ستكون هذه زالزميتةس؟ أخشى أن لا تنضج كما ينبغي...»

فقال رابح في خجل:

– «لماذا كلفت نفسك كل هذا من أجلي؟...»

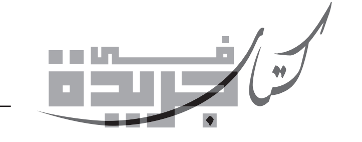
فردت قائلة:

– «لم أكلف نفسي شيئاً يا بني...»

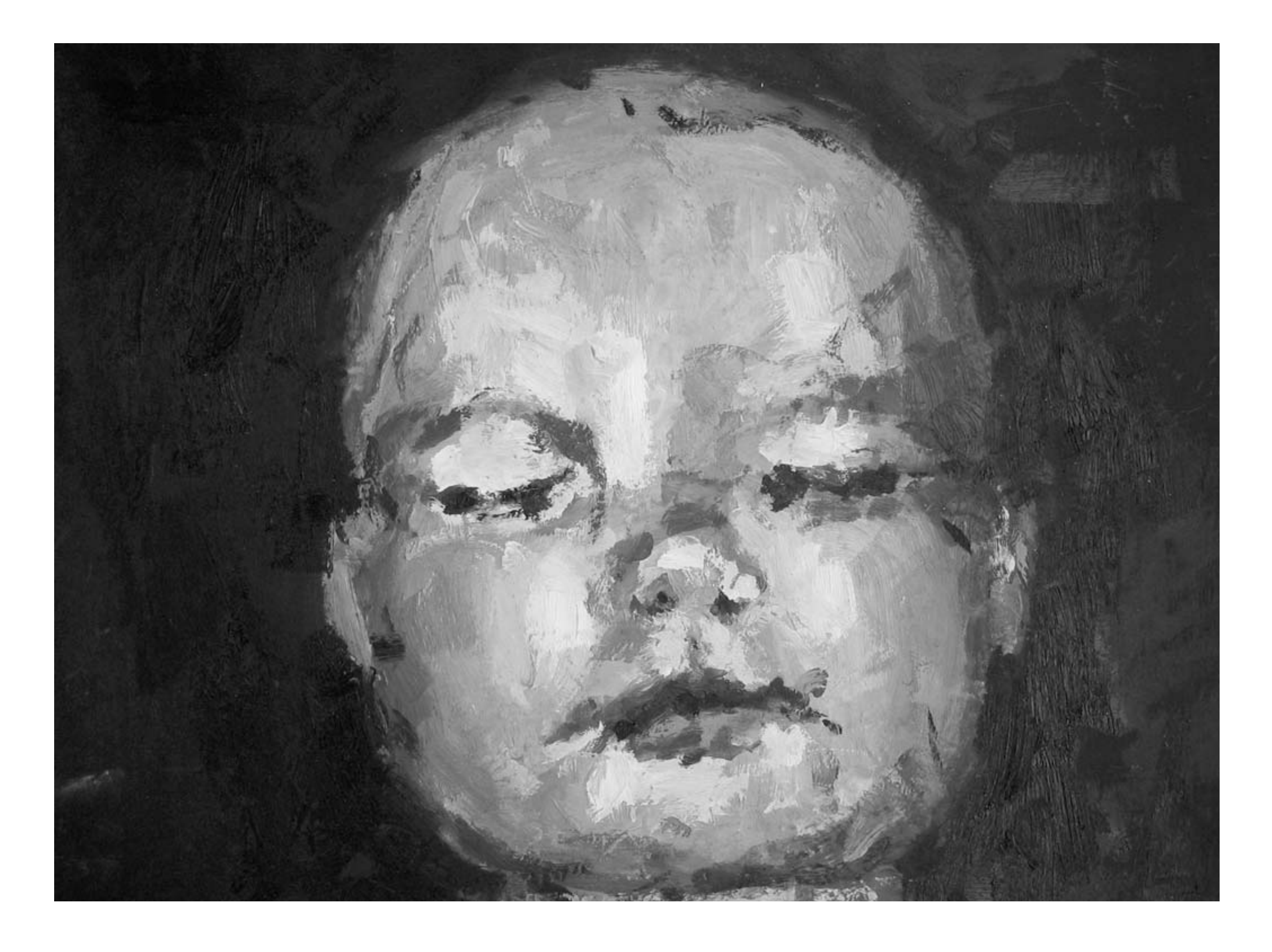
ثم أخذت حقة الفلفل فوضعت شيئاً منه في القدر، وزادت ملعقتين سمناً واستأنفت التحريك.

كان ينظر إليها وهي تعد له الطعام اللذيذ الذي قلما تتاح له المناسبة لتناوله. وكانت رائحة السمن المنطلق من القدر تدغدغ أنفه فإذا نفسه المنقبضة تأخذ في الانطلاق والتفتح. وكان أنين الغليان يصل إلى سمعه لذيذاً طيباً... وكانت العجوز بالرغم من وهنها يبدو على ملامحها وحركاتها سرور وخفة. ولاحظ رابح أنها كانت تلبس عباءة زرقاء أخذ لونها يحول، وتتجلل جلاً من صوف مشدوداً على صدرها بإبزيم من فضة. أما رأسها فكان مغطى بعدد من المناديل وعمة دكناء من فوق تمسك كل ذلك، حتى لا يكاد يظهر وجهها من تحت ذلك الكوخ الموضوع على رأسها! وكانت ذراعاها عاريتين تشبهان عودين واهيين، لم يبق فيهما إلا الجلد يضم العظام والعروق. وتذكر رابح ذراعي نفيسة الجميلتين البيضاوين وهو يرى ذراعي العجوز فأحزنته الذكرى والمقارنة وارتسم إحساسه على جبينه

أسرة متوازية. وقال في نفسه كأنه يحاول التخفيف مما يجده:
– «بياضها من ظل البذخ الذي تحيا فيه».
ولكن هذه الكلمة التي جرت في نفسه لم تستطع الوصول إلى حيث ينبع ألمه. وفعلاً قالها هو لنفسه بنفسه ولكنه كذب نفسه، فهي لا تعبر عن المضمون الحقيقي لحقيقة رأيه في نفسه وفي نفيسة... فهي فتاة جميلة ما في ذلك شك، وأبوها ثري ما في ذلك شك أيضاً. وثراء أبيها أعطى لها مناعة تجعلها بعيدة المنال في أعين الناس، وأبعد بعداً في عيني رابح. صحيح عقله ضيق ولكن ذلك الضيق يتسع لإدراك الفارق الطبقي بينه وبينها. إنما الشيء الذي لا يتسع عقله لفهمه هو ضحكها له ثم طردها له في النهاية مع شتمه بأمر ما سمعت أذناه في حياته: «اخرج أيها الراعي القذر»! ولعل أمر شتم هو ما يصور وضعية اجتماعية بمثابة صفة ملازمة للرجل، أو ما يحدث عن عيب حقيقي لا وسيلة للتخلص منه. تلك هي المرارة المرة التي تغصبها مشاعر رابح.
وواصل حديثه النفسي قائلاً:
– «لعل الفتيات اللواتي تربين في المدن يختلفن عن الفتيات هنا؟ يضحكن للرجال الأباعد دون أن يكون لضحكهن نوايا معينة! أو لعلهن من سذاجتهن لا يعرفن إذا تحدثن إلا الضحك، وإذا غضبن فلا يعرفن إلا الشتم المفرط... «القذر» ما معنى القذر؟ تعني أنني ذو رائحة كريهة، أو أن أثوابي وسخة أو أني فقير لست مساوياً لها؟... أثوابي ككل الرعاة إذا كانت بها رائحة فهي رائحة الغنم؛ والغنم لها رائحة وهي لأبيها ليست غنمي أنا، لا أنال منها إلا عذاب القر والحرّ وهذه الرائحة الكريهة التي جعلتها تقول لي: «الراعي القذر». لا شك أنها لا تعني الرائحة الكريهة، إنما بدل أن تقول: «أيها الراعي الفقير» قالت «أيها الراعي القذر». فهمت الآن ما تعني، تعني فقري ما في ذلك شك. لأنها لم تقل أيها الرجل، قالت الراعي. كأن الراعي وحده الذي يتصف بالقذارة. لا شك أنها تتصور الراعي كحيوان... ككلب، أو ذئب، أو ضبع... لا كرجل. لكنها هي الكلبة وهي ابنة الكلب. من قال لها تضحك... لم أضحك لها أنا الأول ولم أفكر فيها. هي التي بدأت بالضحك... الفاجرة... ثم شتمتني...».
وأخذ الغضب من جديد يهز جوانحه وجوارحه، وإذا العجوز تسأله قائلة:
– «وأمك يا رابح، كيف هي؟ لي مدة لم أرها...»
انتبه رابح من سهوه وسباحته النفسية على صوت العجوز رحمة التي كانت أمامه وأنسي فيها حتى لم يعد يراها لحظات. وأجاب بصوت فيه نبرات المستيقظ من كابوس ثقيل:
– «لا باس عليها. هي هي...»
توقفت لحظات عن تحريك القدر وحركت رأسها إلى الأمام مثبتة لنفسها ذكرى بعيدة شقت أسدال النسيان وبرزت إلى الحاضر، وقالت:
– «بالنسبة إلي، أمك طفلة، ولدت بعد ما مضى عامان كاملان على زواجي بالمرحوم...»
وفجأة شعر رابح بالحاجة إلى معرفة ما يجهله عن أبويه؛ شعر بذلك شعوراً ملحاً، لم يخطر له في يوم من الأيام أن يسأل عن أبويه. واستغرب أن تمضي اثنتان وعشرون سنة: عمره، ولا يخطر بباله أن يعرف منشأه.
– «كأني لست بشراً... أكثر من عشرين سنة أحياها دون أن أحتاج إلى معرفة شيء عن والديّ أمي بكماء، لكن سكان القرية ليسوا بكماً، كل واحد يستطيع أن يخبرني عن شيء. حتى العجوز رحمة التي تعرفني أكثر من كل واحد وأعرفها، لم أسألها عن والدي. في كل مرة تحاول فتح الحديث عنهما وتعريفي بهما أستثقل ذلك كأني أستحيي ببكم أمي؟ ما أغباني!»
مرت بذهنه هذه الأحاديث والتساؤلات بسرعة لمح البصر، وسأل العجوز قائلاً:
– «كيف تزوج أبي وأمي وهي بكماء يا عمتي رحمة؟»
فأجابت العجوز بلهجة التأنيب:
– «هل البكم لا حق لهم في الحياة؟ مالك يا رابح، إن البكم ليس عاراً يا بني، هناك أشخاص تفضل الصمم على سماع أحاديثهم. وبكم أمك لم يمنعها أن تلدك، ولم يحل بينها وبين إسعاد أبيك. كانت تحبه وكان يحبها، وما زالت إلى الآن تحيا على ذكراه. أرأيتها يوماً تضحك؟ إنها مخلصة لأبيك، وهي لذلك حزينة على فقده. كانت أمك جميلة يا رابح، لا كما أنت تراها الآن، كانت بين أترابها تعد أجمل فتاة. لم تولد بكماء إنما «ريح التركة» (التيفوس) هو سببها. هب مرض على القرية في إحدى السنوات العجاف لم يسلم منه إلا القليل، بقينا حوالي ثلاثة أشهر لا نعرف إلا المآتم، حتى صار الناس لا يبكون موتاهم من كثرة الموت. إيه يا بني... كم أخذ ذلك المرض من شباب وجمال! بيوت عن آخرها خربت ولم يبق منها من يزند ناراً. تلك السنة لا مثيل لها في السنين التي أعرفها إلا سني الحرب، فيما أخذت من رجال. ومن ذلك الوقت وأمك بكماء... كتبوا لها ونشروا وبخروا وأخذوها إلى «حمام الصالحين» ولكن كل ذلك لم ينفع. وفي تلك السنة المؤلمة مات أبوها وأمها وبقيت يتيمة. لو أحدثك عن كل ما وقع في تلك السنة من مآس ورزايا لما كفتني أيام بلياليها... أمك يا بني كانت من خيرة الفتيات جمالاً ونباهة ونشاطاً...»
كانت العجوز رحمة تقص على رابح أخبار تلك السنة الأليمة التي عرفتها القرية منذ أكثر من ثلاثين سنة وعيناها تتنقلان بين بعض الأواني الفخارية القديمة التي هي عندها بمثابة سجل قيدت فيه حياة القرية وأيامها... وكانت عينا رابح تراقبان باهتمام بالغ حركاتها المثبتة أو النافية لما تستعرض من أخبار، تتعلق بأهله وبماضي القرية. وكان يبدو عليه الشوق إلى المزيد من فصول القصة... قصة القرية التي نما وترعرع فيها والتي لا يعرف عنها إلا الصورة الجامدة المتكررة التي تتركب من الأرض والسماء. إن الأرض مهما كانت، جميلة أو قاحلة لا أهمية لها بلا بشر. وسكان القرية التي لا يعرف رابح عن حياتهم شيئاً هم القرية الحقيقية التي يحيا فيها... وخطر بباله والعجوز تتحدث، أن عابد بن القاضي لم يحدثه في يوم من الأيام عن شيء غير الغنم والمراعي والذئاب والضباب. بيد أن حياته قضاها معه، يراها تقريباً كل صباح وكل مساء، عندما يخرج بالغنم وعندما يعود بها في المساء!
قامت العجوز من مكانها بعد أن أزاحت القدر عن النار، واتجهت إلى زاوية مظلمة بالبيت فأخذت آنيتين، إحداهما صحفة كبيرة، تشبه القصعة، قديمة، والأخرى عبارة عن صحن صغير جديد ما زال عليه «الطاقة» (اللوبان) الذي تطلى به الأواني بعد إخراجها من الفرن لامعاً عليه. وقربت الصحفة إلى رابح وقالت:
– «انظر... هذا الرسم هو السنة القاحلة. أرأيت؟ إنها سوق الزرع بلا سنابل. وهذا الشكل هو زريح التركة» أرأيت هذه الشمس المظلمة التي لها مخالب؟ هي المرض يا بني وهي الموت الذي خرب بيوتنا...»
وكانت الرسوم سوداء من صبغة أعدتها هي لا تزول مهما قدمت الآنية واستعملت. وكان رابح ينظر بإمعان وإعجاب ما تكشفه له العجوز من خبايا الرسوم ورموزها. ولاحظ رسماً يشبه إطار الغربال أو الطبل وفي وسطه شكل منجل فسألها عن مدلوله مشيراً بإصبعه له:
– «وهذا يا عمتي؟...»
فتنهدت العجوز بعد أن أمعنت ملياً في الرسم:
– «هذا يا بني العام الذي باع فيه الحاج الصالح رأسه على القرية...»
ولم يملك رابح نفسه أن قاطع العجوز بدهشة وفضول:
– «باع رأسه! وكيف ذلك ياعمة؟»
– «لم يسقط المطر طوال شهري فبراير ومارس وجزءاً من شهر أبريل. وأصيب الضرع والزرع باليبس. كان الربيع ولكن في العد فقط، أما الدنيا فكانت شهباء لهباء مجدبة. وكالعادة فكر «الدراويش» أن يقيموا حضرة يرقصون فيها حتى يسقط المطر. وجمعوا كل ما يلزم لذلك من خبز وسمن وزيت لإعداد «الزردة» وشرعوا في الرقص على أنغام «الزرنة» والبندير. كانت الوجوه حزينة والقلوب واجفة والنفوس حيرى متسائلة عما سيأتي به الغيب. ورقص الدراويش وصرخوا بدعائهم سائلين الأولياء والبدلاء والصالحين، وبكوا شاكين متوسلين ولكن المطر لم يسقط. ولما قرب العصر دخل «الحضرة» الحاج حمودة رحمه الله، وكان قليلاً ما يشارك فيها إلا في الملمات. فرقص وبكى وعدد أسماء الأولياء والصالحين وكان يذكرهم بأسمائهم ويستصرخهم واحداً واحداً فلم يسقط المطر. ثم واصل رقصه وبكاءه، وكان أثناء ذلك لا ينفك يطلب المناجل فيلحس لسانه الواحد بعد الآخر، وقد ابيضت من شدة ما بقيت في النار، حتى ظن الناس أن لم يبق في فمه لسان من نار المناجل... ولكن المطر لم يسقط. نظر إلى السماء والتفت يميناً وشمالاً يتفقد الوجوه المتزاحمة في الحلقة... وكانت الأنظار كلها متشبثة به، فبكى بكاء طويلاً. ثم رمى المنجل الذي كان بيده، وعرى رأسه وقال للناس الحاضرين: «إن لم يصب المطر وتخضر الأرض ويدر الحليب وتعود الطمأنينة للنفوس في هذا الشهر شهر أبريل فإني أبيع رأسي». وصرخ بأعلى صوته: «اشهدوا عليّ أيها المخفيون اشهدوا عليّ أيها الأولياء والصالحون، اشهدوا عليّ أيها الحاضرون والغائبون إنني بعت رأسي من أجل أن يحيا ناسي، من أجل أن لا تقص النواصي، من أجل أن يسقط المطر أخماساً في أسداس. اشهدوا جميعاً إني وهبت نفسي لبني جنسي». وخرج من الحلقة وكان الناس يبكون عليه. ومن ذلك اليوم لم يره أحد... وذات يوم من أيام مايو عُثر عليه ميتاً غرقاً في بركة ماء. وفي ذلك الأسبوع صبت الأمطار أياماً وليالي حتى ظننا أن السماء أفرغت كل ما فيها من ماء على الأرض. وعادت الحياة إلى الناس والحيوان، ونبت العشب فإذا الربيع يتحول من فصله إلى الصيف، وتنشرح النفوس لكل ذلك، ولكنها كانت حزينة لفقد رجلها الحاج حمودة الذي «باع رأسه» من أجل إخوانه! إيه، يا بني! كان رجلاً ولا ككل الرجال!...»
تعجب رابح أن لم يعرف هذه القصة الجميلة الحزينة وقال في نفسه بحزن:
– «أنا مغلق، لا أعرف شيئاً. أجهل حياتي وحياة الناس، عشت مع الغنم فصرت واحداً منها. ما الفرق بيني وبين أي كبش؟ أنا ككبش العيد، لا أعرف أمقادٌ للذبح أم للسرح، ضحكت نفيسة فحسبت الدنيا كلها تضحك، وطردتني فظننت الأرض كلها حزينة لحزني ما أشدّ بلهي وغباوتي!»
واستأنفت العجوز مختتمة حديثها:
– «ذهب أولئك الرجال يا ولدي ولم نعد نسمع في «الحضرات» إلا النهيق والفجور».
كانت القدر على الأرض تنتظر يد العجوز تمتد إليها وقد زالت عنها تلك الحرارة المفرطة، وهدأ جوفها من الحركة. وبعد أن أتمت العجوز حكاياتها بقيت لحظات صامتة مفكرة تنظر إلى أشكال ورسوم الآنية القديمة بين يديها. ثم وضعتها جانباً وقالت:
– «أطلت عليك بحكاياتي وأنت لا شك جوعان».
فأجاب رابح بنفي:
– «لا؟ لست جائعاً يا عمة!»
فقالت:
– «على كل حال إنها نضجت وأرجو أن تعجبك هذه «الزميتة»...»
وأخذت ملعقتين من سمن فوضعتهما في القدر وحركت قليلاً، ثم أخذت الصحفة الصغرى فوضعت فيها الطعام الذي أعدته وناولته لرابح.
– «إن وجدت أن الملح ينقصها فها هو أمامك. كل ما بالصحفة لك».
فقال:
– «وأنت يا عمة، ألا تأكلين؟»
فقالت:
– «كل، لا تسأل عني فما زالت القدر منتصفة».
أكل رابح من «العصيدة أو الزميتة» كما يسمونها سكان القرية، وكان يحس ثقلاً في رأسه يشبه الدوار، نتيجة عدم نومه كامل الليل السابقة. كان يحب هذا اللون من الطعام ولكن حالته النفسية قللت من نهمه فلم يتناول النصف مما تعود أن يتناوله من طعام. وكان يودّ أن يسأل العجوز أسئلة كثيرة عن أبيه وعن أهل نفيسة، وربما عن الفتاة أيضاً، ولكن ثقل رأسه منذ أن تناول الطعام ازداد أضعافاً فاختار أن ينصرف ويدع أسئلته تنام في نفسه إلى فرصة أخرى.
ولاحظت العجوز عليه دلائل العياء فسألته:
– «مالك يا رابح، أرجو ألاّ تكون مريضاً؟»
– «لا، لست مريضاً. إنما النعاس فقط...»
– «لعلك أصابتك «اللقية» من السمن؟»
– «لا، ليس بي شيء. إنما لم أنم ليلة البارحة... يجب أن أذهب إلى الدار لأنام قليلاً».
ترددت العجوز لحظات قبل أن تسأله عن سبب مجيئه وقد نسيت أنه حملها إلى بيتها من المكان الذي سقطت فيه وأغمي عليها. وقالت له:
– «ألم تسرح اليوم يا رابح؟»
– «لا...»
فقالت متسائلة:
– «لعلك جئت إليّ في حاجة واستحييت أن تخبرني؟»
فقال مجيباً:
– «لا شيء، حملتك إلى البيت لأنك كنت مغمى عليك».
فقالت وقد تذكرت سقوطها:
– «آه، نسيت يا بني، صرت أنسى كل شيء، أنسى الخير وأنسى الشرّ» وأضافت سائلة:
– «قل لي يا رابح، لماذا لم تسرح اليوم ألم تتخاصم مع ابن القاضي؟»
– «لا، لم أتخاصم معه. ولكن...»
ولم يستطع أن يتم كلمته، فقالت له العجوز:
– «من عادة ابن القاضي أن لا يخاصم اللهم إلا إذا حدث جديد...»
فأجاب رابح في ملل:
– «لم نتخاصم، إنما أنا الذي... أنا الذي قررت أن أبدل العمل».
فقالت بدهشة واستغراب:
– «تبدل العمل؟ تعني أنك بطلت رعي الغنم؟»
– «نعم بطلت...»
– لو فكرت جيداً يا رابح قبل أن تقدم على قرارك، إذا بقيت بدون عمل ستتعذب أنت وتتعذب أمك».
– «فكرت يا عمة، وقررت أن لا أبقى راعياً. ليست مهنة... لا أحب أن أعيش مع الأغنام طول حياتي».



الفصل الخامس



أعادت خيرة السؤال بدهشة وذعر:

– «وجدتها مريضة في الفراش؟»

أجاب عبد القادر في تأكيد:

– «مريضة مرضاً كبيراً. هي وحدها مسكينة لا تجد حتى من يناولها شربة ماء!»

تألمت خيرة مما حكاه ابنها عن العجوز رحمة وقالت:

– «انقطاعها عنا هذه الأيام لم يكن إذن إلا لمرضها! مسكينة!»

واسْتأنفت تسأل ابنها:

– «هل أوصتك بشيء، هل تستطيع الأكل؟»

– «قالت إنها ترجو أن تبعث إلى مالك من يخبره، ولكنها كانت تهذي، فهي تتكلم دقيقة، ثم ما تلبث أن تأخذ في الهذيان، فتتحدث عن المقبرة وعن العيون التي تسيل بالقهوة، وعن الأواني التي تشبه النجوم... وأحياناً تقول: إنها آنية كبرى فارغة، كل ما كان فيها من ماء صنعت به الأواني الجديدة، إلى غير ذلك من الخلط...»

– «اذهب حالاً إلى الدشرة فأخبر أباك، إنه بالمقهى. قل له: إن العجوز رحمة مريضة مرضاً شديداً وإنها تقول لك: ابعث إلى مالك شيخ البلدية ليأتي، وقل لأبيك يأتي... اجر».

ذهب الطفل ليخبر أباه بما أوصته أمه. وقامت هي تعدّ ما حضر من دقيق وسمن وفلفل وقدّيد لتأخذها معها إلى المريضة.

وكانت العجوز رحمة منذ أن سقطت بقفة التراب قد ساءت حالتها الصحية. وبالرغم من ذلك لم ترد الاستسلام، وظنت أنها تستطيع أن تواصل عملها إلى ما لا نهاية. وهكذا عندما أتمّت التراب الذي كان عندها ذهبت كعادتها إلى المحفر الذي تجلب منه التراب الحرّ الخاص بصنع الأواني، وعندما رجعت لبيتها شعرت بعياء بالغ وبثقل في رأسها فأخذت سجادة قديمة من حلفاء كانت في فناء الدار فوضعتها في مكان ظليل ونامت فوقها. ولما استيقظت وجدت جسمها يكاد يلتهب ناراً من كثرة ما تعرضت للشمس. قامت تتعثر وكانت تحس أن أعضاءها لم يعد بينها انسجام في الحركة ولا قوة فيها. ودخلت البيت تجرّ نفسها جرّاً. أخذت عيداناً من حطب فوضعتها في الموقد ثم أخذت علبة الثقاب التي كانت فوق أثفية سوداء قرب الموقد فحركتها فإذا هي فارغة. ففتحتها لتتأكد هل هي فارغة، أم هناك عود التصق بأحد جانبيها كما يقع أحياناً، ولكن العلبة كانت فارغة. رمت العلبة بغضب. ثم قامت بجهد بالغ واتجهت نحو صندوقها الأسود الذي تحفظ فيه كل أمتعتها وماضيها. وهذا الصندوق اشتراه لها أبوها يوم أن زُفت إلى زوجها عروساً! عندما كان لها أب وكان لها زوج... وكان حينئذ هذا الصندوق أخضر اللون جميلاً. وكانت به رسوم مختلفة تمثل وروداً وأسماكاً مذهبة ودوائر هندسية كثيرة... وكانت هي حينئذ فتاة عروباً تحمل عمرها في صدرها الممتلئ وفي شفتيها الباسمتين وفي عينيها الممتلئتين أحلاماً وآمالاً، وفي صوتها الصافي العذب... أما الآن فأين هي تلك الفتاة من هذه العجوز المحطمة، وأين هو ذلك الصندوق الأخضر الجميل من هذا الأسود المشقَّق!...

فتحته لتبحث فيه عن علبة أو عن عود ثقاب، ولكنها بعد التفتيش المتعب لم تجد شيئاً. وقالت بخيبة وحزن:

– «هذا ما كتب الله. لن أشرب القهوة...

وأرادت أن تتفقد التراب الذي نشرته في فناء الدار لييبس ويسهل دقُّه ولكنها لم تجد قوة على المشي. أحست أن جسمها ازداد ثقله أضعافاً وصار كأنه شيئاً خارجاً عنها، وإنما شدَّ فقط إلى ظهرها بحبل وثيق كقفة التراب! جلست تستريح بيد أن الجلوس لم يرحها فقد أحست أيضاً أن رأسها يزن ما تزنه قفة التراب! وتمتمت في نفسها:

– «هذا هو المرض! لا أقوى على وقوف ولا على قعود فلم يبق إذن إلا الفراش». والفراش حصير قديم ووسادة محشوة بالرقع الفانية والخرق البالية...

أخذ جنبها الأيمن خطاً منحنياً من الحصير، واستقبلت بوجهها الباب ومطلع الشمس، وأغمضت عينيها. لم تكن نائمة ولا يقظى إنما كانت في حالة تشبه الذهول أو الغيبوبة. وبقيت كذلك في سهوها فترة من الوقت، ثم أخذ يصل إلى سمعها حس حبيب رتيب، ينطلق من الموقد: حس المغلاة! وأخذت رائحة القهوة تدغدغ برفق أنفها، وأخذت نكهتها الطيبة تسري شيئاً فشيئاً حتى تبلغ أقصى أقاصي وجدانها! ثم لا تدري كيف يتحول حس المغلاة الحبيب الرتيب إلى خرير... ثم يتشكل ذلك الخرير إلى صورة في نفسها، تمثل جداول كثيرة تسيل تحت أفياء وظلال الأشجار الباسقة المتعانقة الأغصان... جداول لا تسيل بالماء ولكن بالقهوة! ما ألذّ الحياة أن تسيل الجداول بالقهوة الغالية! وتتابع العجوز الجداول في سيرها الملتوي حتى تصل إلى أسفل بستان فإذا هي ترى بركة كبيرة هناك... بركة من قهوة! وبغتة تجد نفسها تسبح فيها... وتتذكر في تلك اللحظة أنها لا تحسن السباحة، وإذا البركة يزداد اتساعها ويزداد عمقها... وتشعر بالخطر... إنها توشك أن تغرق في بركة القهوة! وتصرخ بأعلى ما يصل إليه صوتها، ولكن الصوت يتلاشى في حلقها اليابس فلا يبلغ حتى سمعها! وتعيد الصراخ، وتعيد... ولكن الصوت لا يخرج كأن حلقها سدّ بالتبن! يا لسخرية الحياة! الموت يأتينا مما نحبُّ!

تخيلت العجوز رحمة أنها لم تغرق وحدها في بركة القهوة، البساتين أيضاً غرقت، الشمس والسماء، الأرض بما فيها من محافر لصنع الفخار، كلها غرقت في نفس اللحظة التي غرقت فيها هي!

وهناك بعيداً في القرار، في قرار البركة، لم تجد العجوز قهوة ولا ماء ولا ما شاهدته يغرق بغرقها، وإنما الجفاف المحض! وأحست بعطش يلتهب في أحشائها، عطش لا يشبه عطش الحياة! وأغمي عليها وكان الإغماء يقظة!...

تحركت العجوز في فراشها وفتحت عينيها وإذا بها تجد حلقها جافاً كالورق، وفمها مرّاً مرّاً كما لو أكلت أغصان شجر الدفلى! وأدركت أنها كانت تهذي من غمرة الحمى التي غشتها، وصيرت رغباتها المكبوتة أحلاماً عذبة نهايتها الجفاف والظمأ.

كيف تطفئ هذا المارج الملتهب في حناياها؟ من أين لها وهي في تلك الحالة أن تصل إلى قربة الماء المعلقة في فناء الدار؟ لم تستطع أن تحرّك لسانها وتشكو ما تجده من عطش. كل جوارحها لم تعد قادرة على الحركة ولا الشكوى. كانت روحها فقط هي التي تشكو، وهي التي تصرخ، ولكن صرخة الروح لا تسمع!

ما أمرّ الوحدة إذا ساكنت الشيخوخة والمرض!

«العطش، العطش، العطش!»

ثواني الظمأ آباد وحدها.

«الحمى، الحمى، الحمى!»

لحظات الألم هي العمر الحقيقي لكل إنسان.

«يا رب! إني أتألم!»

يا لبشاعة الكمال الذي يسعى إليه الإنسان!

تألمت العجوز رحمة بظمئها وحماها وبشيخوختها ووحدتها، ولم يكنَّ بها رحيمات، فلا أوصلنها إلى إغماء حقيقي ينسيها فترة من الوقت ذلك الجحيم الذي ألقيت فيه، ولا إلى الموت...

والهذيان أيضاً لم يكن بها رحيماً، فبدل أن تتخيل الينابيع الثرارة والمياه الصافية، تخيلت دارها صارت فرناً هائلاً ينفث ألسنة من لهب تصل إلى ارتفاعات كبيرة، وتخيلت نفسها آنية، بين الأواني التي صنعتها، في جوف ذلك الفرن الرهيب!:

– «أنا آنية! أنا فخار، من يشتريني؟.. أنا أحسن

من كل الأواني... الفخار لا يتكلم وأنا أتكلم... من يشتريني؟ أنا آنية، أصلح للماء، للطعام، للزهور... انظروا إلى النار التي تلتهمني... إنها تصهرني لأزداد جمالاً! أنا آنية أصلح للماء، للطعام، للزهور... أنتم لستم أواني. أنتم ما زلتم طيناً. لم تصقلكم يد مثل التي صقلتني، ولا صهرتكم نار مثل التي أنا فيها... انظروا إلى النار، أتستطيعون الحياة فيها مثلي؟ أنتم لستم مثلي، ما زلتم طيناً. لم تعرفوا العطش، لم تعرفوا النار، لم تعرفوا الشيخوخة والوحدة، لم تعرفوا الحمى... أنا آنية أصلح للماء للطعام للزهور... من يشتريني؟»

كان الطفل عبد القادر قد رجع منذ برهة من الوقت فوجدها في حالة هذيان. ولولا أن أمه أوصته بالبقاء عندها حتى تأتي هي لخرج لتوه. لأن منظر العجوز أذعره، وخشي أن تموت قبل مجيء أمه وأخته. وأخذ يناديها:

– «جدة رحمة! جدة رحمة!»

لكن هذه كانت تهذي مما جعل نداءه لم يصل إلى وعيها. واحتار ماذا يفعل...

بقيت كذلك حوالي ساعة، ثم أخذ الهدوء يعود إليها شيئاً فشيئاً ومع الهدوء عاد الوعي. فرأت عبد القادر جالساً إلى جانبها فابتسمت له، وأشارت له متمتمة بكلمات متقطعة أن يناولها الماء، ففعل. وأعانها ما استطاع على الشرب ولكن ما سال على صدرها وعنقها أكثر مما استطاع حلقها بلعه.

وفرح الطفل أن رأى وعيها يعود إليها. وأخبرها أن أمه وأخته قادمتان لقضاء الليلة معها. وأن أباه أرسل إلى مالك من يخبره بمرضها. فقالت له العجوز بكلمات لا تكاد تبين:

– «لماذا يرسل إليه، لماذا؟ سيزعجه وقد يكون مشغولاً بأعماله».

فأفهمها الطفل أنها هي التي طلبت ذلك. فأجابت:

– «كنت أهذي يا ولدي».

فأجاب الطفل:

– «نعم كنت تهذين... ولكن عندما سألت عن مالك لم يكن يظهر عليك أنك تهذين!»

– «لم أتذكر يا بني. أنت على حق».

وأغمضت عينيها من جديد. وبالرغم من الجهد الكبير الذي بذلته لكي تبقى تؤانس الطفل وتحادثه فإنها في النهاية استسلمت للإرهاق الذي سلطته عليها الحمى.

ولما دخلت خيرة وابنتها وجدتا العجوز ساهية والطفل جالساً إلى جانبها. ولولا ما كان يظهر عليه من هدوء لظننتا أنها ميتة! فلم يكن في ملامحها ما ينم عن حياة ما عدا النفس...

وضعت نفيسة يدها على جبين العجوز فكان يلتهب ناراً. واحتارت ماذا تفعل للتخفيف عنها، لم يكن بالقرية أي مركز صحي ولا حتى أقراص «الأسبرو». وقالت بأسى مخاطبة أخاها:

– «إن بقيت هكذا، ستموت!»

فأجاب الطفل:

– «وماذا نفعل؟»

فقالت بتذمر:

– «لست أدري... حتى الطبيب لا وجود له في هذه القرية الخالية!»

فقال الطفل:

– «حتى طبيب المدارس لا يأتي في الصيف».

وأخرجت خيرة فستاناً من القفة التي جاءت بها معها فألبست العجوز إياه بعد أن نزعت عنها الجبة التي كانت تلبسها والتي كانت ابتلت من العرق. ثم جاءت بآنية ماء فغسلت لها وجهها وأطرافها. وفرشت لها في مكان آخر من القاعة أقل ظلاماً. وقالت لابنتها:

– «عاونيني...»

فنقلتا العجوز إلى الفراش الجديد. ثم راحت تنظف البيت وترتب أثاثه، فجمعت الأواني التي كانت مبثوثة هنا وهناك على أرض القاعة. وكانت العجوز خلال ذلك تفيق لحظة ثم تعود إلى غيبوبتها.

كانت خيرة أعدت للعجوز مرقاً بالدجاج فحاولت أن تطعمها قليلاً ولكن هذه لم تستطع. كانت الحمى تزداد شدة كلما تقدم الوقت. وعاودها الهذيان من جديد... والغريب أنها كانت في هذيانها أقوى على الكلام منها في حالة الوعي. وقالت بصوت واضح:

– «لست عجوزاً... لست عجوزاً!»

فحاولت نفيسة أن تكلمها فأشارت لها أمها أن تدعها أحسن، لأن الحديث يتعبها، فسكتت. وأضافت العجوز هاذية:

– «أنا طفلة ظمأى! ما كان لدي من ماء صنعت به النجوم! زوجي يعرف ذلك يعرف الحقيقة... اذهبوا إلى المقبرة، زوجي هناك، بالمقبرة القديمة. قبره مغطى بالأواني. هو يعرف الحقيقة... أنا فتاة... الشمس فتاة مثلي فهل الشمس عجوز؟ التراب لم يعد صالحاً لصنع الأواني الجديدة. الأحسن أن لا ينزل المطر لئلا يغرق الموتى! أرأيتم المقبرة؟ كل القبور تهدمت. الطائرة الصفراء ليست آنية، لا تصلح للماء ولا للقمح. مالك أنا التي ضمدت جراحه. الطائرة الصفراء لا أحبها... أنا آنية... انظروا إلي كيف ألتهب في هذا الفرن! انظروا... ألتهب ولا أحترق!»

وقع نبأ احتضار العجوز على مالك وقعاً مؤلماً. وقال في نفسه بمرارة:

– «عرفت أن هذا اليوم لم يعد بعيداً...»

وكان الذي أبلغه الخبر وصل إلى القرية المركزية بعد المغرب وأفهمه أن العجوز في حالة خطيرة. وخبر الليل ينذر أكثر مما يبشر...

أخذ مالك سيارة البلدية وانطلق إلى القرية. لم يكن المسلك الذي تسلكه السيارة يوصل إلى دار العجوز، لأنها كانت تقع في مكان مرتفع كمعظم دور القرية، ترك السيارة في مكان قرب المسلك ومشى. وكانت دار العجوز تظهر فوق ربوتها في تلك الليلة كمعبد من معابد البوذيين.

ولما وصل إلى باب الدار الخارجي سمع حديثاً في بيت العجوز ففهم أنها ليست وحدها. فدق الباب وإذا بالطفل عبد القادر يخرج وإذ يرى مالكاً يعود بسرعة ليخبر أمه بالطارق فتقول هذه بفرح:

– «ليدخل، ليدخل».

لم يرق مالكاً وجود حماته السابقة هناك، ولكنه لم يتردد في الدخول لأن ما جاء من أجله كان أهم من كل شيء آخر.

استقبلته خيرة بسرور صادق لا مجاملة فيه، فقد كانت تشعر بالحاجة الملحة إلى حضور رجل احتضار العجوز. لأنها كانت لا تدري ما يجب أن تفعل لو قُدّرَ أن توفيت المحتضرة في تلك الليلة. وقالت وقد احتضنته:

– «أرأيت يا ولدي هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها خالتي رحمة المسكينة!»

أما نفيسة فلم تفارق المكان الذي كانت جالسة فيه قرب العجوز وحاولت أن تسيطر على نفسها بقدر المستطاع، بأن لا تبدي تضايقاً لا اغتباطاً بمجيء مالك. ولو أنها في حقيقة الأمر لم تكن مرتاحة لوجوده، بيد أن سلوكه خفف عليها من مراقبة نفسها. فبعد أن تبادل التحية مع الأم أومأ برأسه إيماءة خفيفة حيا بها الفتاة، وربت على كتف الطفل وكانت نفسه متجهة كلية إلى العجوز التي كانت حينئذ في حالة غيبوبة. وقال في نفسه وقد جلس قربها:

– «لن تخرج من أتون هذه الحمى إلا رماداً!»

وبقي صامتاً واجماً وجوماً يصور ما كان يشعر به من حسرة ومرارة وأنسي في نفسه وفيمن حوله فرؤية العجوز وبيتها المظلم والأواني والأثافي والصندوق الأسود وكل ما بالبيت من أثاث أعاده إلى الأيام الطويلة التي قضاها جريحاً في هذا المكان الذي ترقد فيه العجوز. كان ذلك أثناء الثورة...

اختفت العجوز رحمة المريضة شيئاً فشيئاً في نظره، واختفى كل من كان وما كان بالبيت... لم يعد يرى خيرة ولا نفيسة ولا عبد القادر الجالسين قرب العجوز... ورجعت به الذكرى إلى ماض بعيد: يوم أن كانت العجوز رحمة صحيحة وهو جريح محموم عندها.

ورآها أخذت قصبة من حديد فحركت به الموقد، ثم خاطبته سائلة عن حاله:

– «كيف تحس جراحك الآن؟»

– «أحسن من الصباح».

فقالت:

– «يجب أن أغلي الخباز لتبديل ضمادة ذراعك اليسرى أما اليمنى فلن أمسها. هكذا قال رفيقك، أليس كذلك؟»

فأجابها مالك باقتضاب:

– «نعم».

وكان يشعر ببرودة شديدة تعتريه. وأخذ جسمه يهتز وأسنانه تصطك بالرغم عنه. وإذ لاحظت العجوز اقشعراره وضعت يدها على جبينه فوجدته يلتهب حرارة. وقالت:

– «هذه نوبة حمى».

فأجاب في عياء بيّن:

– «أظن... إني أحس بقر شديد...»

حاولت العجوز أن تشجعه فقالت:

– «هي نوبة حمى لا تلبث أن تزول. إنّ جراحك ليست بليغة كما قد تتخيل. إنك لن تخرج من بيت خالتك حتى تعود أقوى وأشد مما كنت. لقد أخذت احتياطي واشتريت ما يكفي من الحطب والقمح إلى نهاية الشتاء».

ثم اقتربت من جديد نحو الموقد وأخذت القصبة الحديدية وراحت تحركه وقالت في نفسها وقد رأت نار الموقد أخذة في الذبول:

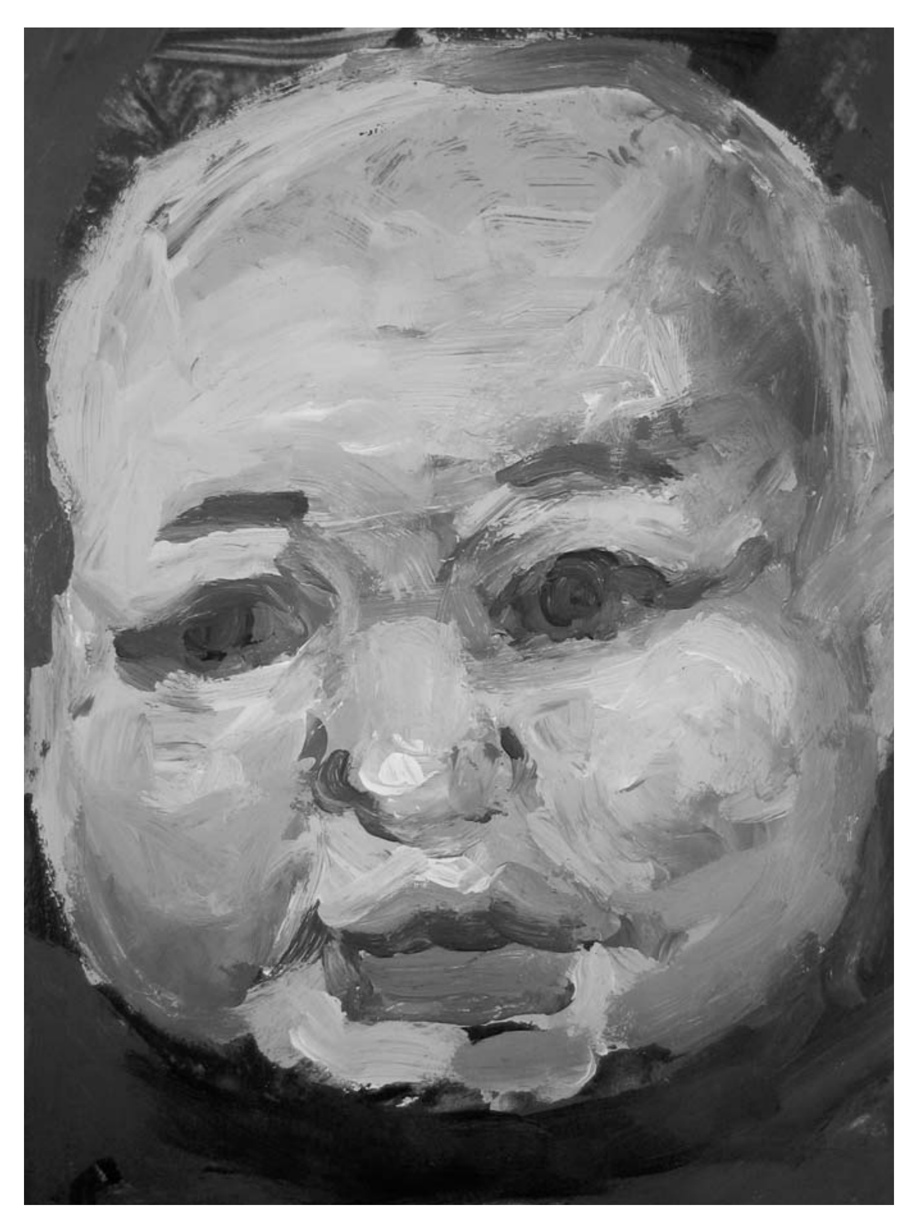
– «يجب أن أزيد الحطب. إنّ قرّ الليلة شديد».

ثم قامت متثاقلة في حركة وانية. تجرّ نفسها جرّاً إلى الجهة القريبة من الباب حيث كوم الحطب. وكانت أنفاسها تسمع من بعيد محشرجة موحوحة. وفتحت الباب فوجدت الأرض مغطاة بلحاف أبيض لا نهاية له. ووجدت السماء غائمة ملتصقة بالأرض، والثلوج تهطل، فبقيت لحظات ساهمة واجمة. ثم أوصدت الباب بيدين مرتعشتين، كل حركة منهما تنم عن مشقة وجهد. وكان الباب ألواحاً من خشب قديم، تمسكها إلى بعضها مسامير خشنة صدئة منذ القدم. وبين اللوحة والأخرى انفراجات تتسع لدخول اليد فضلاً عن الريح! واتجهت إلى كوم الحطب فسلت منه عيداناً وأخشاباً، وعادت في مشيتها الوانية ووحوحتها الشاكية نحو الموقد، تشد إلى صدرها المقوس بذراعين يابستين ما جلبته من حطب. وقالت لمالك:

– «صارت الأرض بيضاء!»

لكن مالكاً لم يجبها فقد غمرته الحمى ولم يعد يسمع ولا يرى ما يجري حوله. وضعت الحطب أمام الموقد. وأخذت قصبة الحديد فحركته من جديد وأزاحت الرماد الذي ملأه، ووضعت فيه عيداناً من حطب العرعر ثم أسندت فوقها جذعاً غليظاً من شجر البلوط.

كان الموقد حفرة صغيرة في الأرض بزاوية البيت وإلى جانبه أثافي ثلاث ما تزال نظيفة لم يسودها الدخان. وعلى أثفية منها قنديل صغير مصنوع من علب أغذية المصبرات التي راجت بالجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، ذبالته ترسل بصيصاً من نور أحمر مائل إلى الصفرة، يظهر وجه العجوز من خلاله كورقة تين في أواخر أيام الخريف، تعلوه صفرة داكنة. وكانت خطوطه وانكماشاته تدل بوضوح على أن السبعين سنة التي عاشتها صاحبته لم تمض مضياً كريماً. وكانت عيناها الكليلتان تنظران إلى الموقد نظرات فيها غضب حزين. وكان رأسها مغطى بمناديل حشيفة من قماش، مربوطة ربطاً وثيقاً بعصابة من (شاش) صار لونها الأبيض رمادياً لشدة ما تعرضت للدخان. بينما وضعت على ظهرها حائكاً من صوف مشدوداً إلى صدرها بإبزيم من فضة على شكل هلال. وكانت العباءة الوحيدة التي تلبسها في ذلك الحين لا لون لها توصف به من شدة القدم،



إنما هي قطعة بالية مرة تظهر سوداء وأخرى قسطلية وثالثة زرقاء، حسب ما يحلو لضوء الموقد والقنديل.

كانت عناية العجوز بالموقد فائقة الحدّ. لم تنفك تحرّك هذا العود وتنفض عن الآخر رماده، وتقرب هذا من ذلك حتى احمرّ جوفه بالجمر، وصفت ناره من الدخان، وابتسمت ألسنتها بالدفء والحرارة أزالت عن العجوز وحوحتها وحشرجتها، وأشاعت في البيت جواً من الانطلاق فإذا بالصمت الذي كان سائداً منذ قليل تحل محله دقات خفيفة متتالية ناعمة تنطلق من كل جهة وجانب. دقات أحدثها الموقد الصغير. وإذا الثلج المتراكم فوق السقف تسري في قلبه الحرارة فيصير دموعاً تجري بها سواقي القرميد وتنزل على الأرض فيحدث ذلك أنغاماً عذبة، تصل إلى سمع العجوز فتملأ نفسها غبطة وأملاً.

وبقدر ما تمرّ اللحظات بقدر ما تزداد تلك الأنغام التحاماً وانسجاماً وتجاوباً فإذا البيت يصير بما فيه من أوانٍ فخارية، وبما فيه من حطب وقمح وأدوات، وبما فوقه من ثلج وقرميد وتراب، يصير سمفونية بديعة، ألحانها ثلج وريح، وموضوعها الجندي الجريح الذي طارت بوعيه الحمى إلى عالم يشبه الأحلام...

وفي غمرة الحمى صاح مالك بانفعال:

– «الحرارة! الحرارة!»

وظنت العجوز أنه استحسن ذلك، ولم تدر أنه يهذي، فقالت بارتياح:

– «أعاد الموقد إلى بيتنا الدفء والحرارة يا بني!»

وأردفت قائلة في نفسها:

– «النار، النار... لولاها لما استطعت صنع آنية واحدة!»

وانطلق بصرها باحثاً عن الأواني المبثوثة في القاعة... كانت عيناها لا تريانها ولكن الرؤية البصرية ليست شيئاً بالنسبة للرؤية النفسية. فهي كانت ترى الأواني آنية آنية بكل ذرات شعورها. ترى الأكواب والصحاف والجفان والطواجن، وترى المزخرف والمنقوش والملوّن وما لا زخرفة فيه ولا نقش عليه. كانت نفسها مكتظة بالأواني الموجودة في كل مكان من قاعة البيت. وكان ماضيها أيضاً مملوءاً بهذه الصناعة. فهي فنانة، وفنها أكسبتها إياه السنون الطويلة التي عاشتها، وأكسبها إياه العمل المتواصل الذي لم تنقطع عنه طوال حياتها، وأكسبتها إياه الوراثة فقد كانت أمها صانعة فخار، ثم أكسبها إياه شغف دائم وطموح متواصل نحو الإتقان. كانت كلما شرعت في صنع آنية أفرغت في إنشائها كل جهدها وكل حنانها وكل شوقها، ورسمت عليها كل ما يجري حولها من أحداث، وما يعتمل في نفسها من عواطف. رسمت ذلك خطوطاً مستقيمة أو متكسرة، متوازية أو متلاقية، ومن جميع تلك الخطوط تبرز في النهاية رسوم جميلة الهندسة وأشكال تعبر عن ذكريات وأحداث لا يفهم رمزها الناس. لم تكن تهتم بالناس أن يفهموا زخرفتها أو لا يفهموا. فهي ليست مؤرخة إنما صانعة فخار. فخارها إن لم يُذكّر الناس بأحداث مرت بهم فهو على كل حال يكفيهم حاجتهم فيما يستعملونه للطعام والشراب.

أخذت العجوز حشائش الخباز فنزعت أوراقها ورمت بالسوق جانباً وقالت مخاطبة مالكاً:

– «إن الخباز يزيل الانتفاخ ويطهر الجرح بدون أن يحدث أي التهاب».

لكن مالكاً لم يجبها فظنت أنه لم يسمعها فنادت:

– «مالك، مالك!»

فأفاق مالك من غيبوبة حمّاه هاذياً:

– «إنني أكاد أحترق من الدخان!»

فقالت العجوز باستغراب:

– «ليس هناك دخان يا بني! إن الموقد بجمره كالورد. فقال مالك بلهجة الغاضب:

– «دخان الطائرة، دخان الطائرة إني لا أرى شيئاً، ذراعي... أظنني أصبت... الطفل يصرخ... أسرعوا إلى إنقاذه... أسرعوا إليه قبل أن تلتهمه النار!...»

قامت العجوز بسرعة نحو مالك وقد أدركت أنه يهذي. وقالت له وهي تنحني عليه في حنان بالغ:

– «مالك، مالك، مالَك يا بني؟ أنت تحترق في حمّاك وأنا ظننتك قد هدأت آلامك!»

لكن مالكاً كانت تصل إلى سمعه كلمات العجوز في غمرة من الأصوات والصراخات والضوضاء فلم تبلغ ملامسة وعيه... وواصل يهذي قائلاً:

– «المهم إنقاذ الطفل من النار... جراحي لا تهم الآن».

فقالت العجوز بنفس الحنان محاولة إيقاظ وعيه:

– «مالك... ليس هناك طفل ولا نار يا بني... إنك في بيت خالتك... إننا وحدنا، هدّئ نفسك...»

ووضعت يدها على جبينه فكان يضطرم حرارة، فأزاحت عنه الغطاء قليلاً ثم ذهبت مسرعة في ارتعاش ففتحت الباب وأخذت كفاً من ثلج وعادت فوضعته على جبينه وأبقت يدها عليه خشية أن يسقط لكن الثلج ما لبث أن صار ماء جارياً على خديه وعنقه فذهبت مرة ثانية وأخذت كفاً آخر وأتت به فوضعته على جبينه فبدأ يذوب كالمرة الأولى فأحس مالك بقطرات ماء وصلت إلى ظهره فقال وهو بين الهذيان والوعي:

– «لست أدري من أين وصل هذا البلل إلى عنقي وظهري! أنا أحترق عطشاً والماء يجري على عنقي!...»

فقالت له العجوز:

– «إنه الثلج وضعته على جبينك فذاب!»

فقال لها بلهجة الساخر:

– «الثلج في الصحراء!... ألا ترين هذه الرمال! إن الثلج لا يسقط هنا. قولي من أنت؟

فأجابته العجوز في دهشة:

– «مالك! أنا... أنا خالتك رحمة... أنت عندي يا بني... إن الحمى هي التي جعلتك هكذا... لا تخف سوف تزول عنك عندما أبدل لك الضمادة. لقد أحضرت الخباز...»

سكت مالك كما لو قد عاد إليه وعيه. وكانت عيناه قد أخذت تزول عنهما تلك الحملقة وذلك التحول المستمر من جهة إلى أخرى، واتجهتا نحو الموقد. لكن النار التي كان يراها تشتعل فيه لم تكن نار الحطب الذي وضعته فيه العجوز منذ لحظات، إنما نار طائرة من نوع «ب 26»... وخيل إليه أنه مع رفاقه المجاهدين وصاح فيهم محذراً:

– «لنبتعد من هنا إنها ستنفجر!...»

فذعرت العجوز لصيحته، والتفتت يميناً وشمالاً لترى أين هذا الشيء الذي سينفجر!

طبعاً، لم يكن هناك شيء. كان مالك يهذي بالطائرة التي انفجرت عليه وعلى جمع من رفاقه...

أخذت العجوز الماء الذي غلت فيه عشب الخباز فغسلت به ذراع مالك، ثم أخذت قطعة من قماش فوضعت فيها أوراق الخباز بعد أن عصرتها جيّداً من الماء وغمستها في الزيت وربطتها على جرحه في رفق، وسألته:

– «ألم أوجعك؟»

وكانت الحمى قد أخذت تزول عنه وعاد إليه وعيه، ولكنه كان يحس كأن عظامه تفككت. فأجاب بجهد ومشقة:

– «لا».

فقالت له العجوز:

– «الآن تستطيع أن تطمئن على جرحك فالخباز أحسن مرهم ضدّ التعفن. هناك من يستعمل البصل ولكني أكره رائحته».

ثم قامت فأتت ببعض الأواني التي ما تزال طيناً وأخذت حجرة صغيرة ملساء وشرعت تحك بها الأواني في عناية بالغة أنستها نفسها وأنستها الثلج وأنستها أخيراً الزمان والمكان، ولم تبق إلا يداها تتحركان حركة آلية دائبة، إحداهما تمسك المحك والأخرى تشدُّ الآنية...

أما مالك فكانت الصورة المستولية على شعوره والتي لا تفارقه أثناء الوعي هي صورة قطار المسافرين الذي انفجر تحت اللغم، وكانت من بين ضحاياه خطيبته زليخة...

كان مالك ساهماً واجماً غائصاً في ذكريات الماضي وإذا بالعجوز تقول هاذية:

– «آنية لا تصنع آنية! من يصنع الأواني الجديدة؟ القبور عطشى من يسقيها؟ نار الفرن حمراء... نار الطائرات ليست كنار الفرن... الطائرات والغربان ليست أواني... جرحك أنا أداويه... لا تخف يا مالك، أحسن علاج الجرحى مثلما أصنع الأواني... في القبر أصير تراباً يصلح لصنع الأواني...»

سكتت هنيهة ثم عادت إلى الهذيان من جديد، وفتحت عينيها ومدت يدها إلى مالك بذعر وهي تقول:

– «الوادي، الوادي، إنه يسيل بالنار... جرف كل الأواني القديمة! أنظر يا مالك، أنظر إلى الأواني القديمة!»

فأجابها مالك بحزن:

– «هوني عليك يا خالة! ليست أوانيك التي جرفها السيل».

التفتت العجوز إلى نفيسة وقالت:

– «نفيسة... بنيتي... أرأيت القمر؟ إنه حزين... أحزنته الأواني التي أخذها الوادي...»

فقالت نفيسة مهدئة مطمئنة:

– «كل الأواني هناك يا خالة، جمعتها أنا ثمة. تشجعي. إنها الحمى التي أحرقتك ولن تلبث أن تزول».

أغمضت العجوز عينيها وغاصت من جديد في سهوها وحمّاها.

التفتت نفيسة إلى مالك وقالت:

– «أندعها هكذا؟»

فأجاب مالك:

– «وماذا نستطيع أن نفعل؟ إنها تحتضر».

فقالت بسخط:

– «يا للمأساة! إننا نعيش في القرون الوسطى!»

فرد مالك:

– «إنها كبيرة السن جداً ولا يمكن وهي في هذه الحالة حتى أن نحولها من هذه الجهة إلى الجهة المقابلة».

فقالت نفيسة بسخط:

– «منذ ولدنا ونحن نسمع أن الموت لا مردّ له فصار أملنا الثابت في الحياة هو الموت!»

وصاحت العجوز:

– «أنا لا أستطيع صنع الأواني... لا أستطيع... إني مريضة..»

فاقترب منها مالك وناداها برفق:

– «خالتي رحمة! خالتي رحمة!»

لكن العجوز لم تجبه كانت عيناها مغلقتين، وكان الجزء الأعلى من جسمها تعروه اهتزازات حيناً بعد حين، بينما الجزء الأسفل كان ميتاً.

وإذ رأتها خيرة كذلك أخذت آنية فيها ماء واقتربت منها فوضعت في فمها قطرات ونادتها:

– «خالتي رحمة! شهّدي... لا إله إلا الله محمد رسول الله!»

ففتحت العجوز عينيها إلى خيرة ثم إلى نفيسة وأخيراً نظرت للسقف وقالت بجهد:

– «لم أنس الشهادة! لا إله إلا الله محمد...»

ولم تستطع أن تتم الجملة، فبدل الكلام خرجت رغوة بيضاء، واستحال تنفسها إلى حشرجة. فتأكد مالك من أنها في النهاية القصوى، وأن أي إسعاف ولو بالكلام لا يجدي.

وساد الصمت وأفرغ الجو لحشرجة الموت وحدها التي كانت ترتفع وتنخفض في سماء البيت المظلم.

تمت الساعة دورتها، وامتصت الحشرجة الذرات الهوائية الأخيرة من صدر العجوز...

لم يعبّر مالك عن تلك النهاية إلاّ بدمعة، هي الدمعة الأولى التي يتذكر أن عينيه لفظتاها في حياته!

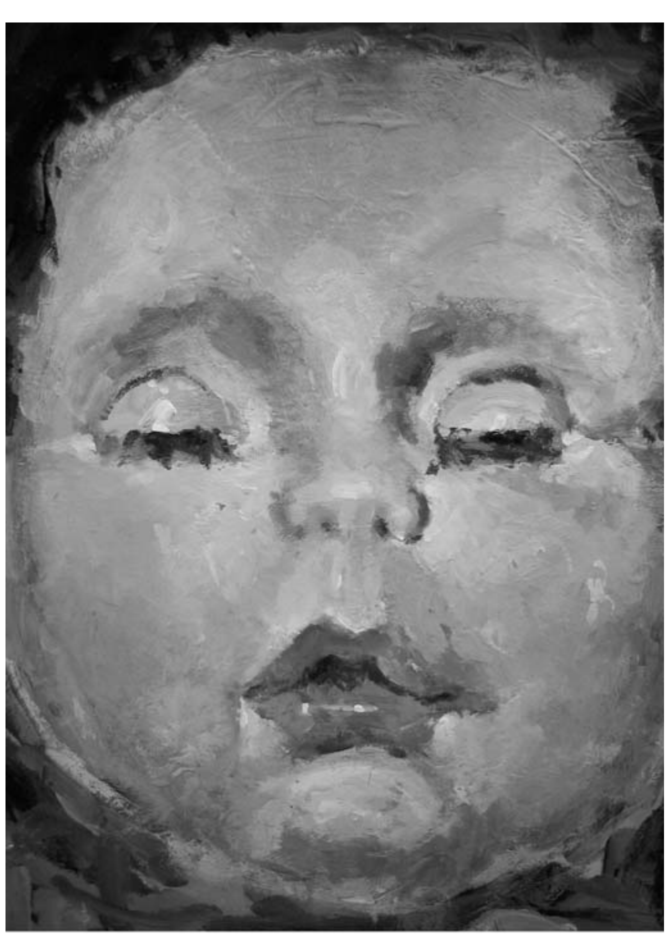
أما نفيسة فأذعرها المشهد فبدل أن ترتمي على العجوز باكية ارتمت على الأرض. وأخذت الأم تبكي بأعلى صوتها بكاء مرّاً. أما الطفل عبد القادر فقد كان حائراً مشدوهاً ينظر إلى الساعة المربوطة بزند مالك والتي رسم عقرباها منتصف الليل.

وكان حينئذ الموت قد أخذ من العجوز وجهها وأعطاها وجهاً لم تعرفه!



الفصل السادس





كان الفجر يتثاءب وراء الجبال، وكان «عمي الحاج» القهوجي كما يسميه سكان القرية، منهمكاً في غسل الفناجين والكؤوس فنجاناً فنجاناً وكأساً كأساً، إذ ليس هناك ما يعجله. فالزبائن لا يأتون إلى المقهى في ذلك الوقت المبكر. وكان أزيز غليان الماء ينطلق من قدري النحاس المنصوبتين فوق ذراعين من حديد داخل «الأوجاق» مما جعل جوّ المقهى تشيع فيه حياة موسيقية اشترك في عزفها الغليان والنار وأصوات الكؤوس والفناجين وكان القهواجي في هذا الجوّ الأليف لديه يشعر بالرضا والطمأنينة. فحياته بالرغم من تكرارها وقدمها قدم مهنته فهي مع ذلك جديدة بتجدد الأيام، تبدأ مع أول رائد للمقهى وتنتهي بآخر مغادر لها. وهذه الجدة في الواقع ناشئة عن ذلك الحظ المجهول الذي يخفيه الغيب. وعمي الحاج مهما خمن فلن يستطيع منذ الصباح معرفة عدد الزبائن الذين سيغشون المقهى في ذلك اليوم. ولهذا فهو في الصباح كله أمل وكله تفاؤل. أما في المساء فالأمر يختلف... الحياة لا تتجدد والحظ لا يخفى والأمل لا يجدي. في المساء لا يبقى وزن لشيء مهما كان ما عدا الأرقام، فهي وحدها الحقيقية. تحدثه بكل دقة عن يومه وتحصي أمامه الحركات التي قام بها كامل النهار حركة حركة، مشخصة في قطع النقد التي باع بها في ذلك اليوم. فبهذه الأرقام التي تمثلها النقود يعرف كم باع من قهوة ومن شاي، يعرف الحقيقة التي ليست حظاً ولا أملاً ولا حياة متجددة. فإن كانت سارة فيبيت مسروراً وإلا فالخيبة. بينما في الصباح فالأمل وحده هو السلطان، ومع الأمل لا تكون الحياة قديمة ولا متكررة. وهو الآن إذ يغسل فناجينه وكؤوسه لا لينظفها وحسب ولكن ليناجيها... صحيح هي مادة جافة لا يمكن أن تسمع مناجاة ولا أن تحس بعاطفة بيد أن المادة التي تلمسها يداك كل صباح وكل لحظة وتراها عيناك في كل آن، وتحيا إلى جانبها في كل أطوارك هل تبقى مادة جافة؟ كلا. إن الفناجين والكؤوس، ولو أنها متشابهة في الظاهر فهي لدى عمي الحاج ذات شخصيات مستقلة. منها الهرم ومنها المتوسط العمر ومنها من لم يمض على استعماله إلا شهور. ثم إذا علمت أن متوسط حياة الفنجان لدى «عمي الحاج» عشر سنوات أدركت ما بينه وبينها من روابط! وهو في غسله للفناجين يشبه إلى حدّ ما العجوز رحمة صانعة الفخار. فعنايتها في صقل الأواني وعنايته في تنظيف الفناجين يتّسمان بنوع من الخشوع الذي يكاد يكون صلاة! والشبه بينهما لا يقتصر عند هذا بل يتعدّاه إلى كثير من الأمور. فكما أنها لم تفارق القرية طوال حياتها لم يفارق هو القرية منذ رجوعه من الحرب العالمية الأولى. وكما أنها كانت تعرف كل ما جرى في القرية من أحداث منذ أكثر من نصف قرن فهو أيضاً يعرف حياة السكان فرداً فرداً ويدري أخبار القرية وما تعاقب عليها من أيام منذ مطلع القرن... لكن هناك صفة لا يشاركه فيها أي شخص من سكان القرية، فهو الوحيد من جيله الذي شارك في الحرب العالمية الأولى. وكاد أن يضيع فيها حياته لولا لطف الأقدار. فقد أصيب في رأسه بإحدى شظايا قنبلة مدفعية، وكان حينئذ مرابطاً في خط «درب دام» الشهير... وهكذا عندما انتهت الحرب نال رخصة فتح مقهى جزاء عن إصابته. ففتح المقهى في أواسط سنة «1920» ومنذ ذلك اليوم وهو قهواجي. جاءت الحرب العالمية الثانية وجاءت حرب التحرير وجاء في النهاية الاستقلال وهو هو، وحياته هي حياته... صحيح أن الحرب التي خاضها لم تكن حربه، ولكنها خلفت في رأسه أثراً جعلته إحدى ضحاياها وتركت في نفسه صورة لتكنولوجية الدمار التي وصلت إليها أوربا في ذلك العهد، جعلته يشعر بالحنان على كل من خاض حرباً وخرج منها حياً، ويقدر بالخصوص أولئك الذين تركت الحروب على أجسامهم آثاراً لا تمحوها الأيام ولا السلام.

كانت أذانات الديوك تنطلق من كل جهة فأحدثت ضجة صاخبة مرحة ملأت فضاء القرية حياة. وكان مالك في ذلك الوقت المبكر ماشياً في الطريق المؤدي إلى مقهى «عمّي الحاج» ليخبر سكان القرية بموت العجوز رحمة. وكان يشعر بحسرة مريرة تكاد تكون يأساً. كانت رجلاه تتحركان في ملل، وأفكاره تجري في دوامة من ظلام غشيت كل فضاء نفسه. لم يكن في الواقع يفكر في شيء مخصوص يتعلق بوضعية السكان مثلاً أو الإصلاحات الكثيرة التي صاغها في مشاريع وقدمها للجهات المختصة للموافقة عليها ولا حتى في الإصلاح الزراعي الذي حلم به منذ أن كان جندياً في جيش التحرير... كان يمشي وكانت خطاه الوئيدة تحدث وراءه وقعاً متواتراً رتيباً. وكان يعد ذلك الوقع: «1 – 2 – 3...» ثم قال محدثاً نفسه في سخرية حزينة متشائمة: «كل المشاريع، كل الآمال كل الأشياء الهامة هي في حقيقتها الغائية مثل وقع الأقدام! حياتي وحياة الآخرين مثل وقع الأقدام، الأيام كذلك مثل وقع الأقدام. الجديد يمحو القديم... ثم ماذا؟ أستطيع أن أعد وقع أقدامي إلى ما لا نهاية... لكن يكفي أن أتوقف عن السير لينتهي الوقع، وينتهي بانتهائه العدّ: 1 – 2 – 3... الأرقام كلها تتساوى لأنها حينئذ تمثل العدم. والواحد يصير مساوياً للصفر! عجباً! لو قيل لي في الماضي إن الواحد يمكن نظرياً أن يساوي صفراً لما صدقت. مع أن الواحد لا يمكن أن يساوي إلا صفراً... حتى العجوز رحمة تساوي صفراً! الصفر في البداية وفي النهاية، لأنه حقيقة ميتة، أو شمس فقدت ذرات إشعاعها! أذهب إلى المقهى لأخبر الناس، لأطلب مساعدة... ألا أقدر على دفنها وحدي؟ أنتظر النهار لأدفنها... هل آلامي في حاجة إلى شهود؟ الموت كالأرض هو دائماً في حاجة إلى أسمدة جديدة... من الأحياء. لكنه مهما قسا فلن ينزع من نفسي كائناً أحببته. تحديت الموت في كل مكان، ووضعت روحي بين يدي لأهبها له ولكنه بدل روحي أخذ مني أرواحاً أحبها... أخذ أبي وأمي... أخذ زليخة، وأخذ الليلة آخر نفس تكن لي عطفاً وحناناً صادقين... كنا أيام الثورة نحب الموت بالرغم من مرارته. كان مثلاً أعلى! لكن الموت من أجل قضية شيء والموت العادي شيء آخر. الموت العادي هو أبشع صورة توضع على وجه الإنسان!»...

واستمرت الأفكار تختلط وتضطرب في نفسه متنقلة به بين مشاهد زادتها ظلمة آخر الليل ظلاماً. ووصل إلى المقهى فوجد «عمي الحاج» جالساً فوق دكة من حجر، عليها سجادة. بيده مسبحة، وأمامه فنجان من قهوة ما زال لم يتناول منه جرعة. وإذ رأى مالكاً قام يحييه وقد أخذت منه مفاجأة هذا القدوم كل مأخذ، مما جعل حقة الدخان تسقط بفنجان القهوة فتقلبه. وقال في دهشة محيياً ومتسائلاً وقد أحدث انقلاب فنجان القهوة في نفسه تشاؤماً:

– «هذه بكرة مبروكة يا سي مالك!»

وحاول مالك أن يملك نفسه ويكظم كل عواطفه، وسأل الشيخ القهواجي عن حاله وصحته بابتسام:

– «أنت دائماً أول من يرى فجر هذه القرية يا عمي الحاج. كيف أحوالك»؟

– «حالة من جاوز السبعين يا ولدي... تفضل اجلس... إنه فجر سعيد هذا اليوم أن نشرب القهوة معاً... مثل أيام الثورة».

كان القهواجي قد جاوز السبعين فعلاً ولكن صحته كانت جيدة للغاية تجعل من العسير على من لا يعرفه أن يصدق ذلك. وفي أيام الثورة عندما كان مالك يزور القرية في بعض الأحيان كان يزور «عمي الحاج» ويتناول معه قهوة الصباح (الفجر) ويستخبر عن كل ما يجري في الناحية وينصرف قبل أن يأتي أي شخص من سكان القرية إلى المقهى. وكان «عمي الحاج» كتوماً للأسرار وكتمانه الشديد أنجاه من عديد الكوارث التي أصابت غيره لا لسبب إلا للثرثرة.

وأجابه مالك مؤكداً:

– «إنك لم تتغير أبداً فالسبعون التي جاوزتها تماثل خمسين للكثيرين!»

– «يا حسرتاه! إنني وهنت يا ولدي. لقد عشت أجيالاً من الناس وأكلت من طعام أسبوع مولد أبيك رحمه الله! لو قيست الأعمار علواً لبلغ عمري السماء!»

– «هو ذاك يا عمي الحاج ولكن العمر الحقيقي للإنسان لا يقاس بالسنين».

– «صدقت يا ولدي. ولكن حتى السنون لها وزنها...»
بعد أن أتم إعداد القهوة ناول مالكاً فنجاناً وأخذ هو ثانياً وجلس إلى جانبه وبدا له أن يسأله عن العجوز رحمة تودداً، إذ أنه يعرف ما بينهما من روابط وقال:
– «هل رأيت العجوز رحمة؟»
– «رحمها الله!»
– «الله أكبر! لا حول ولا قوة إلا بالله! متى كان ذلك؟»
– «الليلة، حوالي منتصف الليل».
– «لا حول ولا قوة إلا بالله. كانت مثالاً للمرأة الصالحة».
ومرت لحظات صمت بين الرجلين كأنها صلاة! ثم قال الشيخ القهواجي متمثلاً ببيت من الشعر الملحون وقد أرسل آهة حزينة:
– «إيه مسكينة! ماذا تدّي يا تراب من الزيّنين؟ يا درّاق وجوه الأحباب خسارة».
يسهل الحديث ويحلو عن قضايا الحياة، إذ به تتشكل الصور الأولى لما كان في منطلقات الأمل، أما عن الموت فالصورة واضحة شديدة تسد كل منفذ أمام النفس فلا خيال ينطلق ولا أمل ينفذ، ولا لسان يجد مساعداً للحركة أو دافعاً لها. فمن غير الميسور إذن أن يجد الرجلان سبيلاً إلى الحديث والموت بينهما قائم. وهكذا فلا مالك استأنف الحديث ولا القهواجي واصله. لكن هذا جرى في نفسه بيت آخر من الشعر الملحون:
«الموت نموت لا نتموشي حيين لازم ذيك الدار راهي تفنيها»
أما مالك فارتسمت في نفسه صورة تمثل العجوز رحمة وهي في شكل تمثال من طين، ثم تتحول إلى آنية ضخمة وسط فرن ناره متأججة، ثم تخرج منه وقد احمرّت فأشبهت اللهب ثم تصير شيئاً فشيئاً كوماً من رماد. وتوالت الصور في ذهنه، صور مجردة تمثل حزنه اليائس وألمه المؤلم وإذا بعمّي الحاج يقول:
– «أحبت التراب طوال حياتها وها هي اليوم تعود إليه!»
– «لتصير تراباً كبقية التراب».
– «الموت يا بني خاتمة المطاف لكل حي».
– «لعبة...»
فاستفسر الشيخ قائلاً:
– «الموت أم الحياة؟»
– «كلاهما».
فهم الشيخ القهواجي من كلام مالك ما هو فيه من اضطراب وتألم بالرغم من مظهره الهادئ المتزن، فقال مخففاً عنه وناصحاً:
– «الأرض، يا بني أم للإنسان، والحياة كالسوق فإذا ما قضى الإنسان حاجته عاد إلى أمه. إن الموت يحزننا لأننا لا نفكر فيه. والعجوز رحمة رحمها الله لو خيرت وهي حية بين الحياة والموت لاختار الموت، لأن الشيخوخة الطويلة عذاب يا ولدي».
فضل مالك الصمت عن الكلام في الحياة والموت كي لا يؤذي الشيخ بما قد ينفلت منه من كلمات لا تناسب مدركات «عمّي الحاج».
وأراد هذا أن يواصل حديثه وإذا بعابد بن القاضي يملأ باب المقهى. لم يكن يعلم بموت العجوز رحمة، فقد قام مبكراً قصد زيارتها والاطلاع على حالتها. ثم ليرى ما إذا كان مالك قد وصل ليلاً أم أخّر مجيئه إلى الغد. وبما أن الوقت ما زال مبكراً والمقهى على طريقه رأى أن يتناول قهوة ثم يذهب إلى دار العجوز. لكنه لما رأى مالكاً فكر في احتمالين: إما أن تكون العجوز قد ابتعد عن حياتها الخطر. فبدل أن يبقى مالك بالبيت مع النساء ها هو ذا جاء إلى المقهى في هذا الوقت المبكر، وإما أنها توفيت... فحيّا وصافح مالكاً بحرارة بالغة وسأله:
– «كيف أصبحت العجوز رحمة؟»
فأجابه مالك: «أصبحت ميتة»...
فكبر عابد بتأثر صادق:
– «الله أكبر! إنا لله وإنا إليه راجعون».
مهما كانت عيوب هذا الرجل فهناك خصلة يتميز بها لا يمكن أن يناقش فيها أحد وهي أنه رجل عمل وإقدام. يأمر ولا ينتظر أن يؤمر. صحيح أن امكانياته المادية تسمح له بتنفيذ ما يريد. فهو من بين سكان القرية يعتبر أثراهم. لكن ليست الثروة وحدها التي جعلته كذلك، بل مزاجه الخاص وطبيعته التي تأبى الاتكال وتأخير الأمور عن مواعيدها وهكذا فبمجرد أن علم بالوفاة بادر بإصدار التعليمات الأولى إلى القهواجي ليبلغها إلى الناس وقال:
– «قل لرابح والطلحاوي أن يقوما بتحضير القبر، أما السعيد ابن العربي فليتوجه إلى القرية المركزية لشراء الكفن وإخبار من هناك من أهل قريتنا بالوفاة. وأنت أخبر الناس أن الدفن يكون بعد صلاة الظهر. أما أنا وسي مالك فنذهب إلى الدار لإعداد التجهيزات الضرورية».
– «كن مطمئناً، كل شيء سيتم على ما يرام».
وأضاف مالك مخاطباً القهواجي:
– «ليبلغ المرسل من بالبلدية وكذلك سي الطاهر المعلم ومسؤول القسمة بوفاة العجوز».
فأجابه القهواجي:
– «كونا هانئين. إذا لم يأت إلى المقهى سأرسل من يخبره في داره لتنفيذ المهمة. أعدا أموركما بالبيت. أما مسألة القبر والكفن وإخبار الناس فأنا أتولاها».
وانصرف الرجلان، بعد أ، تناول عابد قهوته، للقيام بمهامهما.

وكان مالك قد قرّر أن يقوم بكل نفقات تشييع جنازة العجوز. والشيء الوحيد الذي كان ينقصه بخصوص ذلك هو من يا ترى يستطيع أن يطلب منه مساعدة للقيام بالمهمة. لأن إطعام سكان القرية بكاملها غداء وعشاء وما يستلزم ذلك ليس هيناً وكان يودّ على أي حال أن لا يضطر إلى مساعدة عابد بن القاضي ولو أنه في مثل هذه الظروف خير من يقوم بذلك وخصوصاً أن عائلته تعتبر أشد الناس ارتباطاً بالفقيدة. ووجود زوجته وابنه وبنته عند رأس العجوز وهي في آخر لحظات حياتها يقدمه على غيره لكن عدم رغبة مالك في الاستعانة بابن القاضي لها أسبابها المنطقية:
فهو لا يودّ أن يكون الإطعام عن الفقيدة في غير دارها. كما خشي أن يكون في تلك المساعدة نوع آخر من الضغط غير المباشر الذي يجعله مديناً لرجل لا يودّ أن تنشأ بينهما روابط، من أي نوع كانت.
كان يجد في كل تقرب منه مضايقة، وقد لاحظ أثناء وجودهما بالمقهى كيف بادر بإعطاء الأوامر كما لو أن الأمر يهمه هو قبل أي إنسان آخر. وعندما وصلا إلى الدار وألح عليه أن يدخل للتشاور مع عائلته فيما يجب القيام به، شعر بنفور شديد من تقرب الرجل له وعنايته به. ومن حسن حظه أنه يستطيع السيطرة على أعصابه في أحرج المواقف ويجد الوسيلة المرضية لاجتناب أي شرك ينصب له. لكن إحراج ابن القاضي ليس بالأمر الهيّن الذي يمكن صده. فهو من أبرع الناس في تحين الفرص ونصب الأشراك، وهو لا يشعر صاحبه بدَالة ما. إنما يحرص على أن يكون عمله طبيعياً منطقياً تفرضه الحال. وهكذا لم يستطع حزن مالك أن ينسيه هذا الصراع الخفي المستمر بينه وبين الرجل. ففي الدار عندما دخلا كانت نفيسة وعبد القادر نائمين، وكانت خيرة بصدد إعداد القهوة. وبدا لابن القاضي أن الفرصة مواتية ليجعل مالكاً يشعر أنه واحد من أفراد العائلة، وقال مخاطباً زوجه:
– «إن الفقيدة رحمها الله كانت لنا جميعاً أمّاً. وواجبنا نحوها هو أن نجعل من مناسبة وفاتها سبباً لإشاعة الحزن والألم، ولكن لبعث السرور والرضى بما قدر. كانت رحمها الله تحب أن تكون دائماً سبباً في بعث السرور والأمل، مهما اشتدت الرزايا. سأعود إلى الدار لأرتب أموري، فإن كانت تلزمك حاجة أشتريتها لكِ في طريقي من أحد الدكاكين لأن «الفدوة»(1) نجريها هناك...»
وقبل أن يتم حديثه قاطعه مالك قائلاً:
– «إنكم قمتم بأكثر من الواجب. ووجودكم هنا أحد الأدلة لكن «الفدوة» وكل ما يتعلق بالتجهيز والدفن هي من الواجبات التي لا يمكن أن يقوم بها غيري. عندما تفتح الدكاكين سآتي بكل اللوازم».
– «نحن لسنا غيراً بالنسبة إليك وإلى الفقيدة. فلا المنطق ولا العادة ولا أحد من الناس حتى الفقيدة لو كانت حيّة، يقبل أن يكلفك بالقيام بمهمة هي من متعلقاتنا. إذا رأيت أن نقيم «الفدوة» هنا فلا بأس. أنا فكرت في إقامتها بداري تجنباً لنقل كل الأدوات والأثاث إلى هنا ليس إلا. ثم إنها لا تكلفنا شيئاً: الغنم في المراح والدقيق والسمن بالبيت».
– «أعرف ذلك وأشكرك، لكني مع ذلك أنا الذي أقوم بإحضار كل شيء ودفع كل النفقات ولا أظن أنك تحرمني من القيام بأقل ما يمكن أن أقوم به نحو امرأة هي آخر من تربطني به صلة في هذه القرية».
وإذ سمعت خيرة جوابه قالت بعتاب:
– «ونحن يا مالك أفلا تربطك بنا صلة؟»
نزل هذا العتاب من قلب ابن القاضي منزل الغبطة والابتهاج بقدر ما سبب إحراجاً لمالك فأجابها هذا قائلاً بلباقة:
– «أنتم أحياء وهي ميتة الآن، إنني حتى لو أحببت أن أراها في المستقبل أو أصلها لما استطعت. والصلة الوحيدة التي بقيت في إمكاني أن أصلها بها هي القيام بنفقات تجهيزها والإطعام عليها. فهل ترضين أن أحرم من ذلك؟»
فأجابت خيرة تقول:
– «صحيح، غير أنه لا يوجد هنا فراش ولا أواني ولا أي شيء نستقبل به الناس يا مالك».
– «هوني عليك. إن الوقت ليس شتاء أما إحضار الأواني فأمر سهل. ثم إنه من غير الممكن أن نغلق دار العجوز يوم دفنها».
فتدخل ابن القاضي قائلاً:
– «لا بأس، أنا سآتي بالأواني والفراش وكل ما يحتاج إليه ونقيم الفدوة هنا، لكن الذبيحة لا يمكن أن نشتريها والغنم موجودة وأنا أختار كبشاً أو اثنين إذا لزم».
فردّ مالك:
– «لا تكلف نفسك شيئاً».
كان مالك يودّ أن لا يدخل في هذا الحوار التافه في مثل هذا اليوم؟ ولكن الحياة هي الحياة، لها شؤونها وملابساتها التي تجعل الموت أحياناً ليس من الأهمية بأن يشغل عن غيره.
أما نفيسة فقد أفاقت بمجرد ما دخل أبوها ومالك ولكنها تظاهرت بالنوم واستطاعت بذلك أن تتجنب كل مضايقة وتسمع ما دار من حديث بين مالك وأبويها. وأعجبت بلباقة مالك وتخلصه من الموقف دون أن يمس كبرياء أبيها ولا عواطف أمها. كما شعرت بشيء من التذمر عن إلحاح أبيها وكذلك عن تبجحه بما يملك...
أما العجوز رحمة فلم يبق منها إلا جثة فارغة من كل حياة. أجنبية عن دارها وعن كل شيء. بيد أنها ذات يوم كان لها رأي وكان لها قول في كل شأن!
تلقى سكان القرية نبأ وفاة العجوز بتألم وتأثر بالغين. فقد كانت شخصيتها تمثل في كل خيال نموذجاً للمرأة العاملة، للأم الحنون. وكانت أوانيها لا تخلو منها دار فرآها السكان في صبيحة



ذلك اليوم من خلال أوانيها، فكانت كل آنية تمثل لدى الناظر صورة خاصة للعجوز... صورة تثير في النفس حزناً صادقاً. والحياة الطويلة التي عاشتها جعلت موتها مرّ المفاجأة لدى الجميع. وأحسَّ كل واحد أن موت العجوز يعنيه قبل غيره. وهكذا لم تكد ترتفع الشمس قليلاً عن الجبال حتى هبّ السكان نحو دارها، نساء ورجالاً، منهم من يحمل دقيقاً أو سمناً أو لبناً ومنهم من يقود شاة!...

وكان مالك عندئذ جالساً في مكان قرب الدار فأدهشه ما يرى من جموع القادمين نحو بيت العجوز، وما يحملونه معهم! وأحس بالدموع تملأ عينيه تأثراً من روح الشهامة التي أبداها السكان رغم ما يحيون فيه من بؤس وخصاصة. وشعر بأن حزنه على العجوز الذي كاد يبلغ اليأس أخذ يخف شيئاً ما، وهو يرى ذلك التعبير الجماعي الرائع من طرف السكان نحو امرأة وهبت حياتها للعمل حتى آخر لحظة. وتحدث في نفسه قائلاً:

– «هم الشعب، هؤلاء الفقراء... آه لو عرفوا فقط قوتهم الحقيقية واستعملوها كما ينبغي لأدركوا أن الأرض مهما كان أديمها فهي صالحة للخصب».

وتواصل مجيء السكان إلى دار العجوز كامل صبيحة ذلك اليوم. وحمل كل ما وجد بين يديه، حتى الحطب فكر فيه الحطّابون في ذلك اليوم. فلم يحتطبوا للبيع كعادتهم ولكن للمشاركة في إقامة حفلات الدفن. ومن بين هؤلاء رابح راعي الغنم السابق الذي صار «حطاباً» والذي كان أصغرهم سنّاً وأشدهم معرفة بالفقيدة مما جعله في ذلك اليوم أحزن الناس، فلم تنطلق نغمة من نايه، ولا ضحكة من حلقه.

وكان قد علم بالخبر عندما جاء إلى المقهى صباحاً، ليستشير القهواجي حريفه في نوع الحطب الذي يرغب فيه. كان يفعل ذلك كلما ذهب للاحتطاب، ولكنه لما سمع بوفاة العجوز رأى أن يحتطب لها اليوم صدقة على روحها، فهو لا يملك ما يتصدق به غير عرقه. وقبل أن يذهب إلى غايته عاد إلى أمه فأخبرها بالحادث فعزمت أن تذهب تواً إلى دار الفقيدة.

ولم تمرّ الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم حتى امتلأت الدار وفناؤها بالنساء والعجائز والأطفال. وهي أول مرة عرفت فيها دار العجوز هذا العدد العديد من الروّاد فإذا ما ألفته من سكون طوال الشهور والسنين صار ضجة عارمة وحياة صاخبة وإذا موت صاحبتها يضفي عليها جوّاً من الحياة لم تعرفه يوم الزفاف!

وقفت نفيسة وسط هذا الحشد من النساء والأطفال والذباب الذي انتقل هو أيضاً من كل جهات القرية ودورها إلى دار العجوز لم تشعر باختناق كما كان يحدث لها عندما تقام في دار أبيها وليمة. إنما شعرت بنوع من الغبطة، بل تحول حزنها على العجوز وما كان يملأ نفسها من ظلام إلى سرور! فهي لم تر نساء القرية بهذا العدد الضخم وفي هذه الحالة الطبيعية في الماضي. كانت عندما تقع مناسبة تراهن في أزيائهن الطافحة البدائية وفي تطريتهن الغريبة المخجلة وفي أغانيهنّ ورقصهنّ الفلكلوري الساذج فتنفر منهن وتشمئز من أذواقهن الجافة الخشنة. أما اليوم فلا زينة ولا تجميل ولا أغاني صاخبة، إنما هن يتحدثن عن حياتهن وحياة العجوز ويذكرنها بكل ما تعرف ألسنتهن من عبارات الثناء والامتنان. تقوم هذه بتنظيف الأثاث والأواني والأخرى بالتنظيم وتلك بفتل الطعام... وهنّ يلبسن أثوابهن العادية القديمة البالية أحياناً وأعينهن صافية من كل كحل وشفاههنّ في لونها الطبيعي، وأذرعهن وأرجلهن لا تحمل أساور ولا خلاخل ولا تحدث بحركاتها أي ضجة حديدية. كن طبيعيات كما هنّ في كل يوم، وكن بسبب ذلك جميلات طيبات حييات.

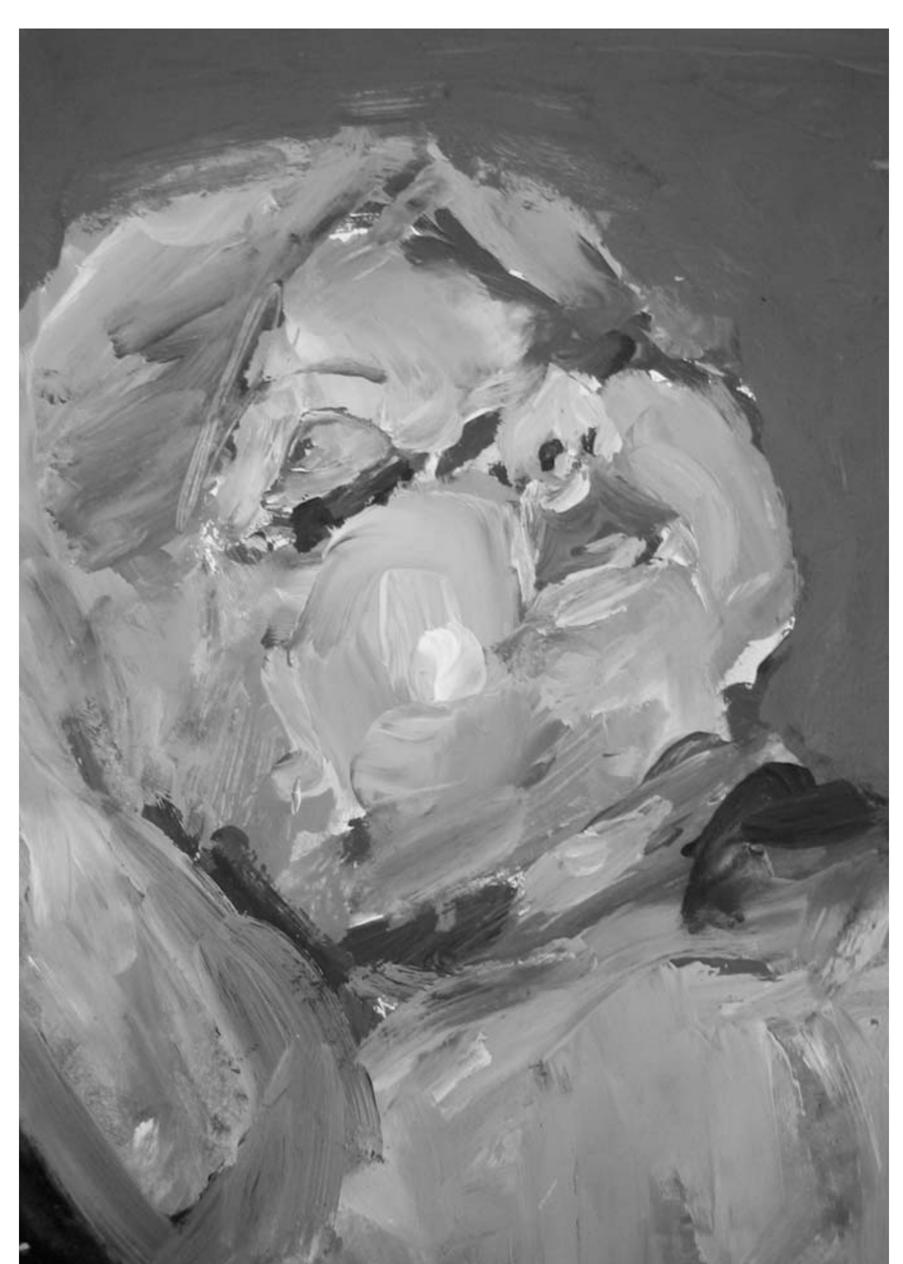
وكن إذا تحدثن إلى هذه الفتاة المتحضرة الغريبة عنهن يتحدثن إليها في لطف وفي خجل. وكانت تجد هي في كل ذلك عناية بها ليس فيها تكلف ولا مبالغة كما هو الشأن بالمدن. فلم تتضايق وإنما أحست بالراحة وهي بينهن، وبالغبطة وهي تراهن يعملن، وبالسرور وهي ترى ما يكننه للفقيدة من عطف وبرّ!

ولعلَّ أشدّ من أعجبت بها منهن امرأة جاوزت الأربعين. كانت بالرغم من أسمالها البالية جميلة الهيأة، خفيفة الحركة، مشرقة المحيا. وكانت أكثرهن نشاطاً. فمنذ أن دخلت الدار وهي قائمة، لم تركن إلى الجلوس لحظة، ولم تنقطع عن العمل ثانية.

كانت دار العجوز تبدو منظمة مرتبة نظيفة، ولكنها بين يديها صارت في حاجة إلى ترتيب وفي حاجة إلى تنظيف. كانت هذه المرأة تجد الشغل فيما لا شغل فيه. وكانت حينما تقترب من الجهة التي تجلس فيها نفيسة تبتسم لها. ولكنها لم تنبس بكلمة منذ أن دخلت الدار، فأثار صمتها ذاك المستمر إعجاب نفيسة وفضولها معاً. وراحت تتابع حركاتها بصورة عفوية، فلاحظت أن المرأة تلبس فستاناً أزرق اللون تزينه أزهار صغيرة تشبه أزهار اللوز يوم أن كان جديداً. وكانت تشدّ وسطها حميلة من صوف محكمة بعقد من خيوط القطن الملون، وفي نهايتي خصلتيها المتدليتين باقة من نوار خيوط القطن، كانت هذه الحميلة وردية اللون. وخيوط القطن التي خاطتها وطرزتها جمعت كل ما يصنعه قوس قزح من ألوان. كانت تلك الألوان واضحة جلية عندما كانت هذه الحميلة جديدة... وكانت تشدُّ رأسها بمنديل من الحرير المصنوع رسمت فيه مناظر لجامع باريس. وكان أحمر اللون حمرة الجمر، جميلاً، يوم أن كان جديداً.

كانت نفيسة تستشف كل ألوان ملابس المرأة من خلال أسمال تبدو للرؤية الأولى عديمة الألوان. ثم انتقل بها فضولها من الملابس، إلى الوجه فبدا لها جميلاً منسجم الأجزاء رغم نضوب الشباب منه وحاولت أن تتخيل صاحبته في ملابس أوربية عارية الرأس. وأجهدت نفسها محاولة أن تنزع بخيالها عن المرأة أسمالها وفقرها وكهولتها فتصورتها تشبه إلى حدّ بعيد إحدى بطلات قصص «دوستويفسكي» بشعرها الأصفر وعينيها الزرقاوين، ولو أنها لا تتذكر بالضبط ما إذا كانت بطلات قصص الكاتب المذكور ذوات شعر أصفر وعيون زرق. على أنها اطمأنت إلى هذا الشبه أكثر من غيره. ربما يرجع ذلك إلى الجو العام الذي كانت فيه وقتئذ؟ المهم هو أن هذه المرأة استولت على نفسها أكثر من كل مَن حولها من نساء القرية. فهناك من النساء من تجد في العمل الدائب لذة وهناك من تتجنب الثرثرة والحديث عما لا يعنيها ولكن يندر أن توجد امرأة تفضل الصمت والعمل الدائم المستمر على الكلام ولو قليلاً والراحة ولو هنيهة!

بيد أن هذه المرأة التي غطى جمالها فقرها وصمتها حالها، لا تستطيع الكلام ولو رغبت فيه فهي بكماء: هي أم رابح راع الغنم!



– «الموت هو الحقيقة التي يعرفها كل الناس ما عدا صاحبها. نؤمن بالموت ونعلم أنه حقيقة لا مناص من الوصول إليها، لكنها حقيقة تفقد كل معنى بمجرد وقوعها. فالعجوز رحمة التي كانت تنتظر هذا الموت منذ سنوات طويلة، هل هي تدرك الآن أنها قد ماتت، وأن القرية كلها سائرة وراء جنازتها؟ لكن ماذا يهم أن تعلم أو لا تعلم، فالموت مشكلة لدى الأحياء، أما بالنسبة إليها فلم يعد شيئاً. الأحياء هم الذين يخافون الموت ويخافون ما وراء الموت فإذا ما ماتوا تحرروا من خوفهم ومن عذابهم».

«لست أدري من منّا المسكين الحزين أأنا الحي، أم العجوز الميتة؟»... كان مالك يمشي وراء الجنازة سابحاً في أفكاره المضطربة وفلسفته العابثة، وكان بعض حفظة القرآن من سكان القرية أخذوا ينشدون قصيدة البردة للبصيري في لحن أندلسي محرّف حزين:

«أمنْ تذكُّرِ جِيْرانٍ بذي سلم
مزجتَ دَمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ»
«أمْ هبَّت الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ
وأومضَ البرقُ في الظلماء من إضم»
«فما لعينيك إنْ قلتَ اكْففاْ هَمَتَا
وما لقلبكَ إنْ قلتَ استفقْ يَهِمِ»

كانوا يعيدون كل بيت مرتين، وكان الباقي ممن لا يحفظون القرآن ولا القصيدة يردون عليهم ببيت من الشعر من قصيدة في مدح النبي لا يعرفها أحد، قارئاً أم غير قارئ. لم يكتب لهذه القصيدة أن يخلد منها إلا مطلعها:

«مولاي صلّ وسلمْ دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلهم»

وكانت أصوات بعض الذين يحسنون الإعراب ترتفع دائماً في كلمة «دائماً» إذ العامة بل حتى حفظة القرآن يرفعونها فيقولون: «دائم»... وكان هؤلاء المنشدون لا يحفظون من قصيدة البردة إلا أجزاء، فإن كانت دار الهالك قريبة من المقبرة لم يعيدوا بيت الشعر مرتين، وإن كانت بعيدة أعادوه، أما إن كانت المسافة طويلة فلا يبدأون الإنشاد إلا إذا وصلوا إلى حجر في الطريق الموصل إلى المقبرة يسمونه: «حجرة الصلاة».

وكانوا يختمون إنشادهم عند الوصول إلى المقبرة ببيت يمجد الرسول يأتي في النصف الأخير من القصيدة:

– «محمد سيّد الكونين والثقلين والفريقين من عبر ومن عجم» وكانوا يزيدون ألفاً ممدودة قبل «والفريقين» فيقولون: «أو الفريقين...» بدل نون «الثقلين» التي ينطقون بها في الشطر الأول من



البيت... وهذه الجزئيات كلها كانت مثار نقاش حاد بين حفظة القرآن، ومحل ضغائن بين بعضهم. وكان السكان ينتظرون منهم هذا النقاش ويصغون إليه بخشوع وإعجاب مهما اشتدّ وطال، وهم وإن كانوا لا يفهمون شيئاً مما يقال إلا أنه يمثل في نظرهم «العلم» والمتناقشون «علماء»... وكان حفظة القرآن يجدون في ذلك امتيازاً لهم ورتبة لا يرقى إليها سواهم.

تمّ الدفن وتفرق الناس ولم يبق عند القبر إلا إمام القرية الذي كان جالساً القرفصاء يتمتم بكلمات لا يعرفها إلا هو، ولكن السكان كانوا يعرفون مضمونها فهم توارثوا هذه المعرفة أباً عن جدّ. كانوا يقولون: «تخلف الشيخ ليوصي الهالكة كيف تجيب عن سؤال الملكين: منكر ونكير...».

كانت السهرة ممتعة، وكان الجو رائقاً، لم يشعر أي قارئ من القراء بإرهاق ولا تعب من قراءة القرآن بصوت عال. وطاب الحديث... فقال الإمام: «إن الجسر الذي يمر به الموتى يوم الحساب والعقاب أحدّ من السيف وأرق من الشعرة». فسأله أحد الفلاحين قائلاً: «إلى أين يذهبون؟» فأجاب الإمام: «الجسر هو أحد وسائل امتحان الناس يوم القيامة. منهم من يعبره جارياً، ومنهم من يعبره حابياً، ومنهم من يغلب عليه شقاؤه فيتردى في الجحيم، أعاذنا الله وإياكم منه». فقال الرجل السائل: «إذن النار تقع تحت الجسر؟» فأجاب أحد القراء قائلاً: «النار تقع على شمال الجسر والجنة على يمينه». فقال رجل ثان سائلاً في استغراب: «الشيخ يقول إن الذي لم يستطع عبوره يسقط في الجحيم، وأنت تقول النار تقع على الشمال والجنة على اليمين؟» فقال الإمام: «تقع النار في نهاية الجسر على الشمال والجنة على اليمين». وسأل آخر قائلاً: «كم كبر الجنة؟» فأجاب الشيخ تالياً آية من القرآن: «وجنات عرضها السموات والأرض». فقال أحد الفلاحين: «إذا كان عرض الجنة مثل السموات والأرض فأين توجد النار إذن؟» فقال له الشيخ مبتسماً: «لو حدثتك كامل الليل وكل النهار عن هذه الأمور لما انتهيت. فقبل الوصول إلى الجنة هناك أولاً سؤال القبر، ثم البرزخ، ثم النشر، ثم الوقوف، ثم الميزان، ثم الجسر... وبين كل مكان وآخر أهوال تشيب لها الولدان! هذا فضلاً عن عدد زبانية النار وطبقاتها وما في كل منها من ألوان العذاب». فحرك الرجل رأسه مصدقاً مبدياً عجزه عن إدراك ما يعرفه الشيخ.

وكان مالك حينئذ يستمع إلى ما يجري من حديث ويقول في نفسه: «إن الثورة المسلحة حررتنا من الاستعمار ولم تحررنا من الأوهام، يجب القيام بثورة أخرى لكن من يقوم بها؟ المدرسة وحدها لا تكفي...»

استمرّتْ أحاديث الرجال حول الموت وما وراء الموت، وواصل شيوخ القرية تعدادهم لأسماء النار وزبانيتها وألوان العذاب فيها، وصوروا ما يلاقيه فيها الملحدون والكفرة وأشقياء الناس من أهوال تصويراً مادياً جعل الحضور معجبين أشدّ الإعجاب بهذه البراعة في «العلم». بيد أنهم – على ما يبدو على وجوههم من انطلاق وبشر –لم يكونوا يشعرون أنهم معنيون بهذا العذاب الماورائي فهم بفطرتهم يدركون أن العذاب الغيبي غيب في ضمير الكون لا يعرفه أحد، وإنما العذاب الذي يستحق الخشية والخوف عذاب الدنيا، عذاب الإنسان للإنسان. لو تحدّث شيخ البلدية مثلاً عن قوانين جديدة أو ضرائب جديدة لشعروا بالوجل الحقيقي الذي لا يدع للوجوه بشرها وانطلاقها ولكن مالكاً لم يتحدث لا عن الدنيا ولا عن الآخرة. كان يشعر أن عزلته تزداد أكثر فأكثر وأن حياته بهذه القرية التي أحبها وخاض حرب التحرير من أجلها، من أجل تغيير وجهها القاتم، هو ورفاق استشهدوا وآخرون غادروها إلى المدينة حيث استأنفوا حياة جديدة، إن هذه الحياة أخذت بمرور الأيام تتكشف عن تفاهتها وعقمها. وأن العهود التي قطعها على نفسه أثناء الحرب، بأن يبقى في القرية التي رأى أول نور على أديمها، مهما كان الأمر، أن تلك العهود أملتها أحلام كانت تكتحل بها عيون كل أولئك الذين قضّت مضاجعهم أحراش الجبال والغابات في الليالي الطويلة، ليالي الموت والأمل... وأن الحقيقة التي تمخض عنها الاستقلال لم تكن في الحسبان، بالأقل في حسبانه هو. «أبقى هنا، هنا إلى الأبد... هكذا كنت أقول، هكذا كنت أغني... أبقى هنا إلى الأبد لأسمع باستمرار أحاديث ما وراء الأبد! ربما استطعت ذلك، استطعت أن أغيّر وأبدّل، لو كنت رسولاً. حتى الرسل لم يغيروا ويبدلوا إلا بعد أن هاجروا...»

مرت بنفسه صورة أحد الفلاحين أثناء مناقشة جرت بينهما بخصوص الأرض، أجابه عن قوله: «إن الأرض كالنور والهواء يجب أن تكون ملكاً للجميع... أجابه الفلاح وقد أخذ بيده كمشة من تراب قائلاً: «الهواء والنور لا تمشي عليهما ولا تمسكهما بيدك كهذا التراب».

وكان مالك قد خرج منذ مدة من الحجرة التي يجلس فيها القراء، حيث أحاديث النار أوصلت نفسه إلى الغثيان، والتمس مكاناً خالياً من الناس يبعد نحو مائة متر عن سكنى العجوز وكان وهو يفكر فيما دار بينه وبين الفلاح من نقاش، يرى الأرض أمامه بتعاريجها وانحناءاتها تشبه خيمة سوداء من وبر وشعر مترامية الأطراف بينما كانت السماء حينئذ ترفل في أجمل حللها الليلية ذات اللون الرمادي، تتلألأ فيها نجوم فضية اللمعان. وكانت أصوات القراء وهم يتلون القرآن تصل إلى سمعه في فوضى وتنافر وازدحام كأنها السيل جرّ ركاماً من حجر وخشب، أو هي أشرطة كلامية مسجلة سُيرت في الخط العكسي للتسجيل. وإذا بعابد بن القاضي يأتي نحوه فيحييه ويجلس قائلاً: «لا شك أن السهر أجهدك». فيجيب مالك على مضض قائلاً: «أحببت أن أنفرد فترة من الوقت ليس إلاّ».

وتمر لحظات صمت بين الرجلين ثم يستأنف ابن القاضي قائلاً في نبرة حزن متكلف: «سبحان الله العظيم، يكاد المرء لا يصدق بموت العجوز رحمة... كم عملت في هذه الدنيا وكم شقيت بها، وأخيراً جاءت النهاية الحتمية...»

لم يرق مالكاً الحديث معه لا على العجوز رحمة ولا على غيرها، ولكن لم يجد بدّاً من الجواب وخصوصاً أنه طبّع نفسه منذ سنوات على احتمال ما لا يحب، وعوّدته وظيفته كشيخ بلدية على سماع أغرب ما يمكن أن يسمع من تفاهات ونفاق وفضول. وقال مجيباً مخاطبه، معرضاً بتهالكه على الدنيا:

– «إن لم تستطع الحياة أن تسوّي بين حظوظ الناس فالموت بالأقل لا يسمح بامتياز أحد على أحد، وفي ذلك سلوى للذين عاشوا محرومين كالعجوز رحمة...»

لم يعجب ابن القاضي جواب مالك وفهم ما يعنيه، بيد أنه لم يظهر أي اهتمام أو امتعاض، بل واصل قائلاً: «ذلك هو الصواب. لكن الفقيدة سعدت بحرمانها أكثر مما سعد المحظوظون بما يملكون. ماذا جنينا من أملاكنا غير التعب؟...»

وقال له مالك في نفسه: «تكذب، تكذب» واسترسل الآخر قائلاً:

– «حياتنا كلها مرت في التخوف والحذر... قبل الاستقلال كنا نعيش تحت الظلم فتعودنا حياة الظلم، وجاء الاستقلال فإذا بظلم الأمس يستمر وتزداد عليه الضرائب الجديدة...»

قال مالك في نفسه وهو يسمع حديث جليسه:

– «ما أشد وقاحة هذا الرجل وما أشدّ جرأته! ظنني في حالة ضعف فاغتنم الفرصة». وقال مخاطباً إياه في تساؤل: «أيّ ظلم هذا الذي تعرضت إليه في عهد الإستقلال؟» فأجاب في مكر:

– «أنت أدرى به مني. تقولون أنتم رجال الحكم: إن الأرض لمن يخدمها، ولكن هل فكرتم في أن الناس لا يحبون خدمة الأرض؟ إن المقاهي مكتظة بالناس ونحن لم نجد مستأجراً واحداً للحصاد، فمنذ الاستقلال صار الناس يفضلون كل شيء على خدمة الأرض. والحكومة أمام هذا الوضع ماذا عملت؟ قالت: «الأرض لمن يخدمها...» والله لو لم أقم ليل نهار بالعمل الجاد المتواصل والعناية بهذه الأرض لأصبحت في ظرف سنة شعاباً وأحراشاً. هل تظنني أعتقد الخلود في هذه الدنيا؟ كلا يا ولدي، إنما لم يهن عليّ أن أرى أرضنا تعبث بها الرياح والانجرافات. لكن الناس يعتقدون أنني أعمل وأجري تكالباً على الدنيا...»

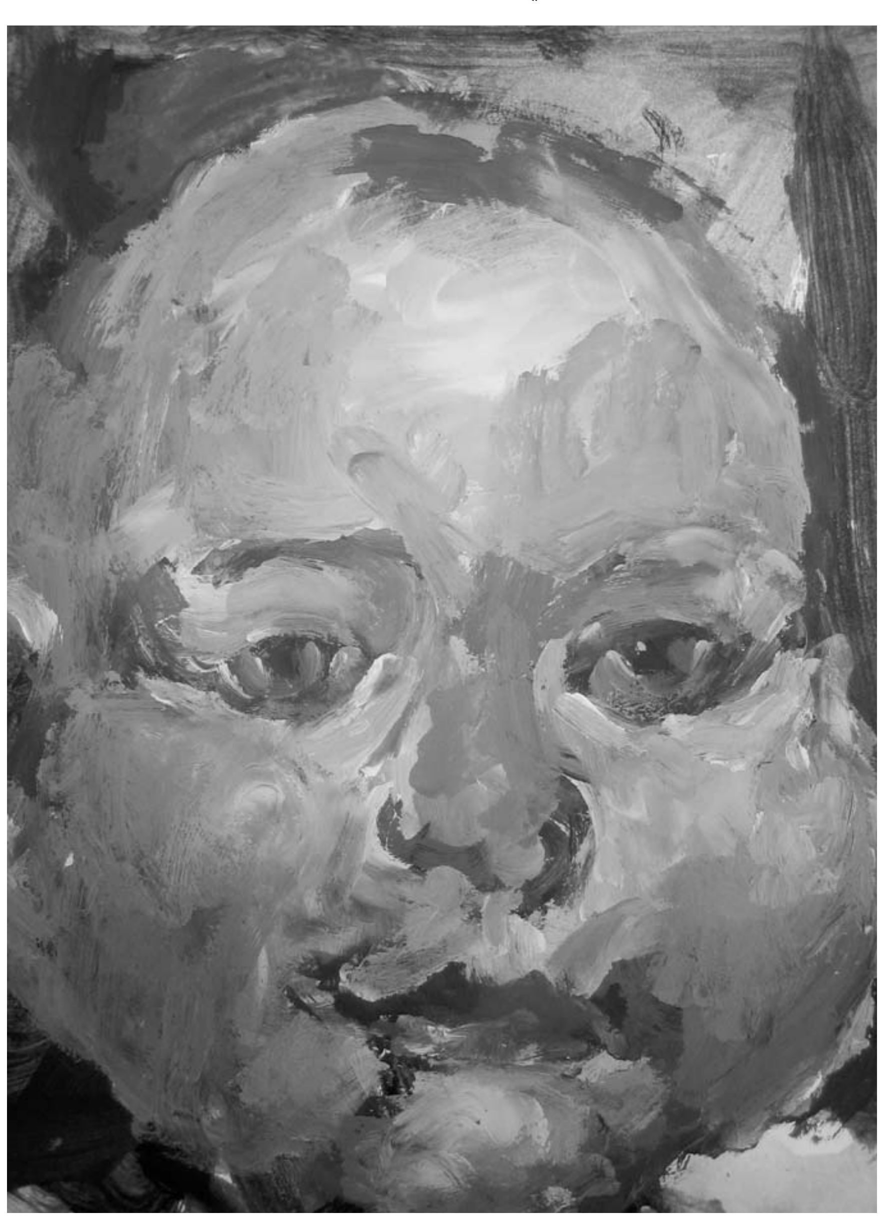
كان ابن القاضي يتحدث ومالك يقول في نفسه: «سنحت له الفرصة للحديث، ليصرح بما يكتوي به قلبه منذ سنين... اغتنم الفرصة ليحدّثني بما أكره، لأنه يدرك أنني لست أفكر الآن في الأرض ولا في السماء...»

وقال له في سخرية: «إذا كنت نلت من خدمة أرضك كل هذا العذاب ولست مدفوعاً لذلك حباً في المال فلماذا لا توزعها على الفلاحين بنفسك، وبذلك تنال راحة نفسك، وتتخلص من هذه الضرائب التي تشكون منها، كما تنال حمد العام والخاص».

فأجاب ابن القاضي ضاحكاً: «قلت لك إن الناس لا يحبون خدمة الأرض، كيف تريد أن أنال حمد الخاص والعام بإعطائهم ما لا يحبون؟»

فقال مالك بهدوء: «إن الناس لا يحبون خدمة أرض الغير، لا يحبون أن يبقوا عبيداً إلى الأبد».

لم يستسلم ابن القاضي بالرغم من إحساسه بقسوة هذه الحجة التي نزلت عليه والتي لم يتوقعها. وقال في ابتسام: «أنت في واد وأنا في آخر يا ولدي... لماذا تريد مني أن أوزع على أناس يقضون أيامهم في الثرثرة بالمقاهي ولعب الميسر، أوزع عليهم أرضاً أبقاها عرق جبيني أرضاً، وشربت من أجلها كل مرّ؟ أوزّع أرضي هكذا بكل بساطة... إنك لا تحب الأرض يا سي مالك وإلا لما تصورت ضياعها بكل هذه السهولة...»



وأراد أن يبدل موضوع الحديث فتخلص قائلاً: «إن الناس لا يحبون لا خدمة الأرض ولا غير الأرض، ظنوا أن الاستقلال يعطيهم الراحة والعيش الكريم. خذ الراعي مثلاً من تصور يوماً أنه يترك رعي الغنم بين عشية وضحاها فجأة. وبلا سبب؟ لم يعطني حتى مهلة أسبوع لأبحث عمن يعوضه... ماذا أستطيع أن أفعل له؟ لا شيء. أصبح يبيع الحطب إلى القهواجي لينتهي به الأمر في النهاية إلى... لعب الميسر كالآخرين... إنهم لا يحبون العمل ولا من يعمل. فسدت طبائع الناس، وفسد حتى كلامهم... صاروا يتشدقون بكلمات لست أدري من أي مكان أتوا بها، الحزب، النضال، العدالة الاجتماعية، الاشتراكية الثورية... لو بت أعد حتى يطلع النهار لما انتهيت... ليس هذا فحسب، بل هم صاروا يطالبون بما يسمونه العطلة السنوية والعطلة الأسبوعية وتحديد ساعات العمل... لو سمعهم من لا يعرفهم لظن أن هؤلاء الناس منذ ولدوا من بطون أمهاتهم وهم يعملون... بينما هم في عطلة أبدية...»

كان ابن القاضي يتكلم ومالك يقول في نفسه: «ما أشدّ حقده على العمال! إنه لو استطاع لأكل لحومهم وشرب دماءهم. كيف يمكن أن يتصور المرء بعد سبع سنوات ونصف من دمار ودماء ما زال هناك من في نفسه على الناس، على الأبرياء كل هذا الحقد؟ إن الثورة لم تنته، بل الحرب لم تنته ما دام يحيا على هذا التراب المروي بدماء الأبرياء أمثال هذا الرجعي البدائي».

وأجابه مالك في تساؤل ساخر: «كأنك تودّ أن يبقى على الأرض إلى الأبد أسياد وعبيد؟»

فقال ابن القاضي وقد أدرك أن حديثه لم يرق مالكاً: «ما أود هو أن يتعاون الناس ويعملوا، أن يعملوا بلا ثرثرة مثل ما كانت العجوز رحمة رحمها الله، هذا هو ما أتمنى. وعندئذ تتبدل حياتهم من شقاء إلى سعادة».

وسكت ابن القاضي فلم يجد ما يقول، لقد بلغت به جرأته مع مالك في هذه الليلة حدّاً بعيداً. وهو كان يود في الواقع أن يحاول الحديث معه في موضوع آخر، موضوع الزواج بابنته، ولكن كما يقولون للحديث شجون... فلم يجد إذن ما يقول بعد الذي قاله ورأى أن يدع موضوع الزواج إلى فرصة أخرى مناسبة. ولعله فعل خيراً إذ لو حدث مالكاً عن الزواج في هذه الليلة لكان أسمعه ما لا يروق سمعه. وقال مستأذناً: «سأعود إلى البيت أما زلت مقيماً هنا؟» فأجاب مالك: «ما زلت...»

رجع ابن القاضي إلى الحجرة التي بها القراء فوجدهم توقفوا عن القراءة لتناول الشاي ووجدهم يتحدثون حول الملبوسات الحلال والملبوسات الحرام بالنسبة للرجال والنساء. فقال أحد الشيوخ الذي يعتبر أن مصنف خليل ابن اسحاق في الفقه المالكي جزء مكمل للقرآن، قال مجيباً من سأله: «هل يجوز للرجال لبس الذهب أم لا؟» قال مستشهداً بخليله: «إلاّ المصحف والسيف والأنف وربط سنين مطلقاً...» وقال له سائل آخر: «والمرأة؟» فأجاب مستشهداً بنفس المؤلف: «وجاز للمرأة الملبوس مطلقاً ولو نعلاً لا كسرير...» فسأل أحدهم: «لماذا لا يجوز لها أن تستعمل السرير؟» فأجابه: «لا يجوز لها أن تستعمل سرير الذهب لأن زوجها يشاركها فيه». فقال أحدهم: «ولكن الناس الآن يلبسون الذهب رجالاً ونساء ما عدا من لم يجد إليه سبيلاً». فقال الشيخ: «إننا في آخر الزمان، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

وقال سائل آخر: «وإذا صلى إنسان وهو يحمل ساعة ذهب، هل صلاته صحيحة أم باطلة؟» فقال الشيخ مستشهداً دائماً بسيده خليل كما يسميه: «عصى وصحت».

وكان الشيخ يحفظ مصنف خليل عن ظهر قلب، مما جعل الجميع يعترفون له بالبراعة وسعة العلم ما عدا واحداً من بين أولئك القراء كان يعتبر أن علم الشيخ الفقيه غير صحيح لأنه لا يعرف علم النحو... وكان هو قد قرأ في صغره متن الأجرومية في النحو وألفية ابن مالك على أحد الشيوخ في زاوية ابن الحملاوي. وكان شيخه النحوي الذي علمه بعض القواعد النحوية يقول لتلاميذه دائماً: «النحو هو مفتاح العلوم». وهكذا رسخ في ذهنه منذ ذلك الزمان، أن العلوم بيوت مغلقة لا يستطيع الدخول إليها إلا من ملك المفتاح: «النحو». وكان يعتبر نفسه بالنسبة لبقية زملائه من حفظة القرآن، «متقدماً». وفي الواقع كانوا كلهم يخشونه لسلاطة لسانه. وكذلك لعدم معرفتهم النحو الذي لا يفتأ يجادل به كل من حاول إظهار نفسه ومعارفه بين الناس.

وكان سكان القرية ينادونه «الشيخ» تجوزاً فهو لا يتعمم كالآخرين ولا يحمل مسبحة. وبالإضافة إلى ذلك فهو يقرأ الجرائد، وشيوخ القرآن لا يقرأونها إطلاقاً. وفي الواقع كان فهمه لما في الجرائد التي يطالعها مخالفاً لما تتحدث عنه جملة وتفصيلاً كما يقولون... ولم تكن مطالعاته للجرائد منظمة مسترسلة، كان يطالع كل ما يقع بين يديه. وهكذا تستطيع أن تراه يوماً بصدد مطالعة جريدة مضى على تاريخ صدورها سنوات...

واتجه إليه أحد الفلاحين بسؤال لا في الفقه ولا في التوحيد ولكن في شيء آخر لم يتعود شيوخ القرآن الإفتاء فيه، فقال: «ما هي الاشتراكية يا الشيخ الصادق؟» فدهش شيوخ القرآن لهذا السؤال الغريب، ولكن الشيخ الصادق أجاب على الفور قائلاً: «الاشتراكية: مصدر. اشترك يشترك اشتراكية. لم يفهم أحد شيئاً من قوله طبعاً، ولكنهم كلهم أبدوا اقتناعهم وإعجابهم بهذا العلم الذي يعرفه صاحبهم: «علم النحو!» وأعاد أحدهم متمتماً: «اشترك يشترك اشتراكية» سبحان الله العظيم!» الاشتراكية مصدر! كل الناس يتحدثون عنها ولكنهم لا يفهمونها بينما هي مصدر...»

لكن كلمة: «مصدر» أيضاً حيّرت الشيخ المتمتم، وتحرّج أن يسأل زميله عن المصدر ما هو... وبعد تردد بينه وبين نفسه عزم على السؤال، لأن هذا الموضوع صار حديث الناس في كل مكان وخشي أن يُسْأل يوماً من طرف أحد الفلاحين فلا يقدر على الجواب، فقال متجهاً إلى الشيخ الصادق: «علم النحو علم جليل». فقاطعه هذا قائلاً في تأكيد: «هو مفتاح العلوم، سبحان الله! وواصل قائلاً: «يقول العالم العلامة البحر الفهامة النحرير الدراكة الشهير الشيخ خالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري شارح الآجرومية: «الحمد لله رافع مقام المنتصبين لنفع العبيد، الخافضين جناحهم للمستفيد، الجازمين... بأن تسهيل النحو إلى العلوم من الله من غير شك ولا ترديد». كان شيخنا يقول لنا: «قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها». وأنا أقول لكم يا أولادي: «العلوم بيوت مغلقة الأبواب والنحو مفتاحها». فردّ الآخر مصدقاً: «صحيح، صحيح... لكن يا الشيخ الصادق ما معنى مصدر؟» وهمس أحد الفلاحين إلى من بجانبه قائلاً: «حتى هذا يفهم!»

فقال الشيخ الصادق مجيباً زميله: «اشترك فعل ماض، يشترك فعل مضارع، اشتراكية مصدر. وهناك خلاف بين العلماء فمنهم من يقول بأن المصدر هو الأصل، ومنهم من يقول بأن الفعل هو الأصل...» فردّ السائل قائلاً: «خلاف بين العلماء... لهذا لم أفهم المصدر...» فقاطعه الشيخ الصادق قائلاً: «علم النحو صعب صعب، أصعب من كل العلوم، لأنه هو مفتاحها».

فقال السائل: «نعم، نعم، صعب جداً لهذا لم أفهم المصدر» قال ذلك وهو يريد أن يقول: «الآن فهمت».

وكان الفلاح طوال هذا الحديث الذي جرى بين الرجلين مصغياً بكل جوارحه ولكنه لم يفهم شيئاً. وقال في نفسه متذمراً: «أنا أسأل عن الاشتراكية وهو يتكلم في النحو...» وصرح قائلاً في ابتسام ساذج: «أنا يا الشيخ ما زلت لم أفهم». فقال له الشيخ الصادق ضاحكاً: «الغريب هو لو فهمت!» فقال الفلاح في امتعاض وقد لاحظ ضحك الحضور: «أنا يا الشيخ سألتك عن الاشتراكية التي تتحدث عنها الحكومة، لا الاشتراكية الأخري». فقال الشيخ الصادق بنفس الابتسام الساخر:

«سواء كانت الاشتراكية التي تتحدث عنها الحكومة أو واحدة أخرى، كيف ما كانت الاشتراكية فهي مصدر، والسلام».

ورأى عابد بن القاضي أن الفرصة سنحت للتدخل فقال: «دعونا من هذا وحدثونا عن موضوع آخر». فقال الفلاح في تحد: «أنت والاشتراكية أعداء نعرف هذا، لأنك تخاف على أرضك أما نحن الذين لا نملك شيئاً فلا نخاف الاشتراكية ولا غيرها».

فقال له ابن القاضي في غضب مكظوم: «كل الناس يعرفون أنك لا تخاف من أي شيء لا من الحكومة ولا من الله». فردّ الفلاح: «يخاف من الحكومة السارق وأنا لست سارقاً، ويخاف من الله المذنب وأنا لست مذنباً...».

ولما رأى شيوخ القرآن أن الكلام اتخذ منعرجاً خطيراً أومأوا إلى بعضهم بعضاً باستئناف التلاوة الجماعية، وعوذ المسن فيهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا...»

وبذلك حسموا ما كاد يقع من نزاع. وكان الليل حينئذ في ثلثه الأخير، وأخذ الحرّ يزداد والجو يثقل، بدل البرودة والاعتدال الذي ينبغي أن يأتي بهما آخر الليل. والتفت أحد الفلاحين إلى من بجانبه قائلاً: «هذه حرارة «القبلي» (ريح الجنوب) لا شك أنه وراء الجبال يتململ ولا يلبث أن يصل بزئيره وجحيمه. فردّ عليه صاحبه: «القبلي»، لا شك في ذلك. سيذرو كل ما جمع الناس من حصاد.

كان البيت الذي يجلس به الرجال ألطف هواء بالليل، لا لوسعه ولكن لأنه لا باب له ولا طين يسدّ ما في حيطانه من منافذ. كان في الواقع عبارة عن فناء مسقوف، أما البيت الذي تجلس به النساء فكان في هاته الليلة بالرغم من اتساعه شديد الحرارة لاكتظاظه بالنساء والأطفال.

وحاولت نفيسة أن تنام عبثاً. كانت تشعر بدوار شديد من جراء الهرج وعدم النوم ليلتين متواليتين. وكانت تحس أيضاً بنوع من الحيرة وضيق النفس لم تعرف أسبابهما. بيد أن أسباب ضيق نفسها هي أحاديث النساء المختلفة التي سمعتها في تلك الليلة، والتي كانت في جملتها تدور حول موضوع الزواج. فقد سمعت إحداهن تحكي عن فتاة في السابعة عشرة من العمر، أعطاها أبوها مقابل مهر يتركب من قنطارين برّا وكبشين وعشرة ليترات من الزيت وخمسةً سمناً وألف دينار، واشترط الملابس خمسة خمسة من كل ملبوس، كما اشترط سوارين وحزاماً من فضة وقرطين وخاتماً وسلسلة من ذهب... ولما جاءت ليلة الدخول وجدها زوجها ثيبا فأرجعها إلى دار أبيها في ليلتها تلك. وخافت الفتاة أن يقتلها أبوها ففرت إلى مكان مجهول... وقد حكت المرأة أن أم الفتاة اختل عقلها لوعة وحزناً على ما حل بدارها من عار وعلى ابنتها الوحيدة التي لا يعرف أحد ماذا جرى لها بالرغم من البحث عنها في كل مكان. وذكرت المرأة أن الفتاة قد تكون انتحرت في مكان لا يعرفه أحد...

وحكت أخرى قصة فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، زوجها أبوها بالرغم من معارضة أمها وأخيها لزواجها في هذه السن المبكرة... وقد نقلت إلى المستشفى في صبيحة ليلة الدخول بها، نظراً لإصابتها بنزيف دموي شديد، أفقدها وعيها...

وحكت ثالثة أن فتاة اضطرت إلى الرجوع إلى دار أبويها بعد ما اتضح أن الفتى الذي تزوجت منه غير مطيق...

وسمعت قصصاً أخرى لا تحصى من هذا القبيل حتى أحست بالغثيان، وحاولت أن تبتعد عن سماع هذه القصص فتنام، ولكن الأرق كان قد بلغ بها حداً يستحيل معه النوم. فاتكأت وغطت رأسها بالرغم من الحرّ وتظاهرت بالنوم لتنجو بالأقل من اتجاه الأنظار إليها... على أن النساء لم يغب عنهن حضورها فبمجرد أن رأوها «نامت» أخذت أحاديثهن تحوم حولها، فقالت إحداهن إلى صاحباتها:

– «لم أكن أدري أنها جميلة إلى هذا الحدّ!...». فأجابتها امرأة منهن: «لست أدري لماذا لا تكون جميلة... الأكل الطيب والراحة والظل... لو ذهبت أسبوعاً واحداً إلى الحقل تحصد لرأيت ذلك الجمال كيف يذبل...». وقالت أخرى: «إن هواء المدن يضفي على صاحبه مسحة من الجمال ولو لم يكن جميلاً». وقالت ثالثة: «يقال إنها ستزف في هذا الخريف... وقيل إن شيخ البلدية لم يكن راغباً فيها وإنما أبوها حتمها عليه...». فأجابتها المرأة التي قالت إن الراحة هي التي جعلت نفيسة جميلة، قائلة: «ملك أبيها قادر على تزويجها بأكثر من شيخ البلدية». فقالت أشدهن حقداً على نفيسة: «لعل لها عشيق ينتظرها بالجزائر... وإلا كيف لا ترضى بشيخ البلدية؟ لقد رأيته عندما وزعوا الدقيق... الشفاه الرقيقة، الأنف المستقيم، البسمة الساحرة... كالقمر، كهلال العيد! أنا لو أومأ لي إيماءة واحدة لذهبت معه إلى حيث يريد... فقالت لها إحداهنّ: «وزوجك؟». فأجابت: «مللته».

واستأنفت المرأة التي ذكرت عدم رغبة نفيسة في الزواج بمالك فقالت: «يقال إنها (نفيسة) تريد متابعة تعليمها، ولا تريد الزواج في الوقت الراهن لا بشيخ البلدية ولا بغيره».

فقالت له المرأة الجسورة التي قالت إنها ملت زوجها والتي هي في الواقع امرأة شريفة السلوك إنما خفة روحها وميلها إلى المزاح يجعلانها تقول ما جاء على لسانها من كلام، قالت: «نحن لم نجد ما نعلم به حرفاً واحداً لأبنائنا وهي تريد أن تقرأ حتى يصل نهداها إلى حزامها! ماذا تريد أن تكون؟ ملكة؟ في وطننا لا مكان للملوك...».

ووصلت الأزات الأولى من ريح الجنوب (القبلي) في عنف فأطفأت قناديل البترول وصيرت البيت كوماً من ظلام، فقالت المرأة المازحة: «أطلقنا ألسنتنا في الناس فأظلم الله علينا البيت». وأردفت قائلة: «جاء يصرصر علينا ويزمجر... سيأخذ كل السنابل التي جمعناها. اللطف!».

كانت المرأة المتكلمة فلاحة، وحياة الفلاح في هذه القرية متحالفة ضدها الطبيعة وبعض الملاك. وأشد الكوارث الطبيعية هنا الجفاف، السيل و«القبلي».

أصبحت القرية كئيبة حزينة تغطي سماءها زوابع الغبار، وتتصارخ في جنباتها رياح هوج، فإذا هي شهباء لهباء، يستعر فيها الحرّ استعارا. وأصبحت الوجوه يجللها الغبار فإذا هي تبدو دكناء قانطة، وأصبحت الذين يملكون شيئاً حيارى ممّا حلّ بفلاحاتهم من خسائر، والذين لا يملكون أي شيء صرعى من أزيز «القبلي»... أما النساء فبكرن مع الفجر لزيارة المقبرة و«مصابحة» الفقيدة العجوز رحمة، فأخذن معهن التمر والخبز، وأخذ بعضهن أواني لوضعها على قبر العجوز...

أما نفيسة فكانت، وهي أمام قبر العجوز، تشعر أن حزنها صار شيئاً مادياً يسد حلقها سدّاً! ولعلها لم تشهد في حياتها جوّاً أحزن من هذا الذي تعيش فيه، ولم تتصور يوماً الموت بهذه الصورة الرهيبة... والحقيقة أن للريح (القبلي) دخلاً كبيراً في هذا الضيق الذي استولى على النفوس، وهذا الجو الكئيب الذي غشي القرية.

أصبح الناس وأصبحت القرية إذن في حزن، سواء كان سببه موت العجوز أو الخسائر التي حلت بالفلاحة أو شيئاً آخر، فقد كان هذا الحزن واضحاً في كل الوجوه. بيد أن شخصاً واحداً من بين الجميع لم يصبح حزيناً ولا يائساً، ولم يدر شيئاً عن صباح القرية ولا سمع دويّ ريحها العنيفة أو أحس بحرها الملتهب، وهذا الشخص هو مالك! لقد أصبح نائماً، نام في نفس المكان الذي تركه فيه ابن القاضي ليلاً. وكان من عادته إذا بلغ به الحزن أقصاه والضيق منتهاه أن ينام.



تفرق الناس نساء ورجالاً وذهب كلٌ في شأنه، ولم يبق ببيت الفقيدة إلا عائلة ابن القاضي ورابح راعي الغنم وأمه بطلب من ابن القاضي الذي رجاهما أن ينتظرا حتى يقوم مالك. ولما استيقظ هذا وجد القرية غارقة في لجة من غبار. وإذ رآه ابن القاضي قام، أسرع إليه بكوب من ماء ومنديل وقطعة من صابون كان قد أحضرها منذ الصباح الباكر، ليتخذها سبباً في التقرب إلى مالك ومحو ما يكون قد بقي في نفسه من موجدة عليه، بعد الحديث الذي جرى بينهما بالليل، وقال له في ابتسام:

– «فضلت أن أتركك نائماً في هذا الغبار على أن أوقظك، لأن النوم مهما كان الحال أجلب للراحة من القيام، وخصوصاً أنك لم تنم منذ ليلتين».

فشكره مالك قائلاً:

– «فعلت جميلاً».

وبعد ما اغتسل مالك عادا معاً إلى فناء الدار حيث يجلس رابح، ونادى ابن القاضي على ابنه عبد القادر أن يأتي بالقهوة، وقال مخاطباً مالكا:

– «القبلي» هو سبب خراب هذه القرية، ما جمعه الناس من حصيد أصبح في الشعاب والأودية.

فأجابه مالك:

– «لو كانت الأرض مشجرة لخففت من عنفها وخسائرها، ولكن...»

فرد ابن القاضي بابتسام:

– «كيف تريد أن تنمو أشجار في أرض تربي المعزى؟ إذا أرادت الحكومة أن تنجح فيما تقوم به من عمليات التشجير عليها أولاً أن تجد وسيلة لصيانة الغابات من المعزى والحطابين».

ثم استدرك قائلاً وقد تذكر أن رابحاً صار من جملة الحطابين، وأن ما قاله ليس من شأنه أن يسهل ما يرجوه من عودة هذا إلى رعي الغنم:

– علـى أن الحطـابين في الـواقـع أقـل ضـرراً مـن المعـزى، ثـم هـم باستمرار عرضة إلى مطاردة حراس الغابات.

فقال مالك في نفسه: «لو كان يملك معزة واحدة لكان أشدّ الناس دفاعاً عنها، ولكن بما أن امتلاك غيره لها يضايق غنمه فها هوذا يدعو إلى الحفاظ على المصلحة العامة كما لو كان فعلاً من أنصارها!

ثم صرح مجيباً في هزء:

– «صيـانة الغابات وحدها لا تكفي. وكل المشاريع التي تضعها الحكومة يجب أن تكون مكملة لبعضها وإلا كانت غير مجدية. فالمعزى مضر بالشجر لا شك في ذلك والاحتطاب الفوضوي مضر كذلك، ولكن الصيانة الحقيقية للغابات تكون بصيانة الأرض كلها بورها ومعمورها، ولا يمكن صيانة كل الأراضي بدون نظام عام لمختلف نواحي الحياة وخاصة الفلاحة...

فقاطعه ابن القاضي قبل أن يتم كلامه لأنه يدرك أنه سينتهي إلى الإصلاح الزراعي ولربما قد يسوء الأمر بينهما أكثر من البارحة فقال مصدقاً:

– صحيح، صحيح، ليس لأصحاب المعزى مورد للعيش غيرها، إنهم مساكين لا يريدون الشر بتربيتهم لها.

واستطرد قائلاً:

– إذا سمحت يا سي مالك أحببت أن أغتنم وجودك هنا فأطلب منك أن تصالح بيني وبين رابح، إنني فيما أعتقد لم أقم بأيّ إساءة نحوه ولكن من يدري، ربما ظلمته من حيث لا أشعر؟ إنه ترك الغنم وغدا يحتطب إلى القهواجي بدون أن يفوه لي ولو بكلمة عما دفعه إلى ذلك! إن كان يشكو مضرة لحقته من عمله أو أذيّة تعرَّضَ إليها مني أو من أحد أفراد العائلة فليتكلم فأنا مستعد للانصاف له ولو من نفسي، وأنت خير حكم وشاهد.

فـهـم مـالك أنـه قـاطعـه عمـداً خشـيـة أن يؤول الحديث إلى الإصـلاح الزراعي، أما بخصوص ما قاله عن الراعي فقد يكون صادقاً، وقال له:

– لعله أحب أن يبدل حياة الرعي بحياة أخرى؟ أنت تعرف أن الرعي هنا هو العامل الذي لا يقاس عمله بالساعات ولكن بالعمر.

فأجاب ابن القاضي في دهاء:

– ذلك هو الصواب، الراعي هو العامل الوحيد الذي لا يعرف العطلة ولا الراحة ولكن لكل عمل مشاقه ومزاياه. على أية حال أنا لا أعتبره أجنبياً ولا أجيراً، فمنذ صباه وهو عندي أعده فرداً من عائلتي، والله شاهد على ما أقول. تكلم يا رابح، هل أسأت إليك أو إلى أمك أو بخلت بشيء رغبتما فيه؟ قل الحق.

فأجاب رابح في تلعثم وحياء:

– لا، حاشاك، لكن كما قال «المير» (شيخ البلدية) أحببت أن أعلم عملاً آخر... فتساءل ابن القاضي قائلاً في تهكم:

– تبيع الحطب؟ هل تحسب أن هذا عمل؟

أراد مالك أن يتدخل لمساعدة الراعي، وقد لاحظ تلعثمه وحياءه، ثم بدا له أن يتركه يدافع عن نفسه. فقال رابح في تفاؤل بيّن:

– أعرف أن بيع الحطب ليس عملاً دائماً، ولكن متى وجدت عملاً أحسن تركت الاحتطاب. فسأله ابن القاضي مشككاً إياه في تفاؤله:

– وأين تجد هذا العمل؟

فقال رابح بنفس التفاؤل:

– إن لم أجد عملاً هنا أذهب إلى مكان آخر. أرض الله واسعة...

فرد ابن القاضي قائلاً:

– صحيح أرض الله واسعة، ولكن العمل فيها ليس سهلاً. على كلّ ما دمت تنوي العمل فأنا أعتقد أن العاقل لا يترك عملاً بين يديه ليبحث عن عمل مجهول، فإذا كانت أجرتك السابقة غير ملائمة فنعيد النظر فيها بمحضر سي مالك وتعود إلى غنمك.

فقال رابح رافضاً:

– لا، الغنم لا أعود إليها أبداً...

قال ذلك وقد تذكر الجملة التي شتمته بها نفيسة: «أيها الراعي القذر...» وكرر رفضه مؤكداً:

– لن أرعى غنمك ولا غنم غيرك، ولا أنوي أن أقضي حياتي راعياً مهاناً...

فقاطعه ابن القاضي وقد اندهش من جواب رابح فقال:

– راعياً مهاناً! من أهانك يا رابح؟ هل أهنتك أنا أو أهلي؟ قل الحق.

فأجاب رابح في تلعثم:

– حاشاك، قلت مهاناً، أقصد أن صاحب هذه المهنة لا قيمة له عند الناس.

وبعد لحظات صمت قال ابن القاضي وهو يفكر في نفسه: آه لو بقيت الحياة مثل الماضي... حتى الراعي صار صاحب كلمة! ثم قال:

– افعل ما تشاء. أنا ظننت أني أحسن إليك إذ عرضت عليك الرجوع، وبما أنك لا تريد فليس استئجار أحد لرعي الغنم هو الذي يصعب عليّ.

وهكذا انتهى موضوع الراعي بغير ما كان في حسبان ابن القاضي، وخصوصاً وهو كان يظن أن مالكاً لا يصل به الحقد إلى هذا الحدّ. فلم يؤيده حتى بكلمة لإرجاع الراعي... وقال في نفسه: «لعل حتى موضوع الزواج لا يهمه؟ لو كان يفكر جديّاً أنه سيصير عما قريب صهري لما كان موقفه سلبياً إلى هذه الدرجة... من يدري؟ يجب أن أستمر في المحاولة... فقضية الراعي شيء والمصاهرة شيء آخر.»

والتفت إلى مالك قائلاً:

– هل فكرت يا سي مالك في بيت العجوز رحمها الله؟

فأجاب مالك وقد فهم ما يعنيه:

– لست وارثاً.

فقال ابن القاضي:

– ولكنك من جهة الصلة الدموية أنت القريب الوحيد. ويجب أن تتولى ما خلفته الفقيدة ولو كان قليلاً.

فقال مالك:

– الأمر بسيط، نبني في بيتها مدرسة للقرية، والأواني الصالحة نأخذها إلى معرض الصناعة التقليدية، أما باقي الأثاث نوزّعه على الفقراء. أليس هذا هو الأنسب؟

فأجاب ابن القاضي في إذعان ورضوخ:

– ما ترى هو الصواب.

واستطرد قائلاً:

– أتعود اليوم إلى القرية المركزية؟

– نعم، بعد أن نرتب أمور الفقيدة، يجب أن نحضر بعض رجال القرية لإخبارهم بما ذكرت لك.

فقال ابن القاضي:

– ألا تـعـتـقـد أنـه يـحسن أن تـؤخـر هـذه المسـألـة إلى مـا بـعـد مـرور الأربعين؟

فأجاب مالك قائلاً:

– ما الفرق؟ الأحسن أن تضبط الأمور من الآن.

فقال ابن القاضي:

– على كل حال إن كان ولا بد أن يقع توزيع تركة المرحومة اليوم فأنا أقترح أن يكون ذلك أثناء الفدْية التي أقيمها الليلة في داري على روح الفقيدة.

فقال مالك سائلاً:

– هل تعتزم إفداءها الليلة؟

فأجاب:

– نـعـم، وهـذا أقـل ديـن علـيّ للـمرحـومـة. وبـهذه المناسـبة أظن من الأحسن أن لا تذهب إلى القرية المركزية هذا الصباح وتعود إلى هنا في المسـاء، بـل الأفضـل أن تستـريـح وغـداً إن شـاء الـلـه انصـرف إلى شؤونك.

فرد مالك موافقاً:

– ذلك هو الصواب.

انصـرف رابـح وأمـه ولم يـبـق في دار الـعـجـوز رحـمـة إلا عـائـلـة ابن الـقـاضـي وبـعـض المقـربين لـهـم. وإذ رأت خيرة زوجـهـا ومـالـكـاً جالسين وحدهما جاءت لتحيّي مالكاً ثم لتتشاور مع زوجها في موضوع الفدية. أما نفيسة فكانت حينئذ نائمة بعد ما قضت ليلة مليئة بالحيرة والقلق. واستمرت ريح الجنوب في عنفها مدمدمة دمدمة رهيبة لا تبقي ولا تذر.

سـكـتـت الـريـح واعـتـدل الـجـو، وهـبـت أنسـام «الـبـحـري» (ريـح الشمال) فأزالت عن النفوس ما كانت تجده من ضيق وتحسه من حيرة، وعادت إلى سماء القرية زرقتها الصافية وإلى أرضها لونها الصيفي وأفقها المحدب بقمم الجبال. وجاء المساء فكان الغروب كما عهده الناس جميلاً حزيناً يودع شمسه وهي تنزل بأشعتها الذهبية في عينها الحمئة حيث تقيم إلى أن يحين غد جديد! وجاء الليل فوجد دار ابن القاضي قد استعدت كأحسن ما يكون الاستعداد لاستقبال سكان القرية وحفظة القرآن فيها، حيث ستقام بعد حين الفدية المقررة، صدقة على روح العجوز رحمة...

وانـقضـت الـلـيـلـة كـمـا انـقضـت سـابـقـتـهـا في أحـاديث بين الفلاحين وحفظة القرآن عن الآخرة وأهوالها وعن القيامة ومشاهدها، وكذلك عن الحياة وشـؤونـهـا ومـا يـنـتـظـره الـنـاس من مشـاريـع تـقـوم بها الحكومة في قريتهم الفقيرة... وتحدثت النساء أيضاً في تلك الليلة كما تحدثن في السابقة عن كل ما عاشته القرية من أحداث في ذلك الصيف: قصص الزواج والطلاق، وأخبار المنسوجات والموضات الجديدة... وتعرضن إلى الحديث عن نفيسة هذه الفتاة المدنية التي تختلف عنهنّ، وعن زواجها المنتظر بشيخ البلدية... وكن في هذه الليلة أكثر حذراً من الليلة السابقة في أحاديثهن المتعلقة بنفيسة كما كن أكثر انشراحاً وهن في دار سكانها أحياء. وقد كان الرجال أيضاً أكثر انشراحاً وانطلاقاً وأشدّ إقبالاً على الطعام... وكانوا أثناء الأكل يـتـنـادون: «انـفـعـوا المرحـومـة!... يـعـنـون بـذلك أن الـنـهـم في الأكل يضاعف الثواب والأجر ويوسع الرحمة على روح الفقيدة.

وفي الصباح تفرق الناس وذهب كل إلى شؤونه. وعاد مالك إلى القرية المركزية حيث سكناه وعمله. وذهب رابح الراعي إلى الاحتطاب، وكان هو الوحيد من بين السكان الذي لم يحضر «الفدوة» التي أقـامـهـا ابن الـقـاضـي، بـالـرغـم مـن إلـحـاح بـعض السكـان عـلـيـه في الحضـور، الأمـر الـذي دعـا بـعـض ذوي الـفـضـول إلى مـخـتـلـف التأويلات والتفسيرات...

لم يحضر رابح راعي الغنم «الفدوة» لأنه قرر أن ينزع عنه هذه الصفة (الراعي) إلى الأبد. ولم تحضر العجوز رحمة لأنها لم تعد تسكن هذه القرية ولا هذه الأرض، ولم يبق بينها وبين الناس أية صلة أو سبب بالرغم من أن حياتها قضتها في العمل من أجل الناس! من أجل سكان هذه القرية التي أحبتها وأحبّت من فيها وما فيها حتى التراب!

(1) الفدوة: الاطعام على روح الفقيدة وقراءة القرآن.

